

الفصل الأول :

مضامين الأغنية الشعبية بالوادي الأبيض

المبحث الأول :أغاني المضمون الاجتماعي

المبحث الثاني:أغاني المعتقدات

المبحث الثالث:أغاني المضمون الوطني

إن أول أقسام الفولكلور "ميدان الأدب الشفاهي Oral Literature ويسمى أحيانا الفن اللفظي Verbal Art أو الأدب التعبيري Expressive Literature، وتندرج تحت هذا العنوان الأشكال التقليدية المنطوقة من حديث وغناء وصوت والتي تتصف بتكرار أنماطها"¹.

ومن ميدان الأدب الشفاهي الأغنية الشعبية، التي قلما استهوت اهتمام الباحثين، مقارنة بالأشكال الأدبية الشعبية الأخرى ، ولهذا ظل حقل البحث في هذا المجال خصبا، وهذا لا يعني إنعدام الدراسات وإنما قلتها بالنظر إلى الدراسات الضخمة في باب الحكاية الشعبية مثلا.

وقد أثرى المغني الشعبي أو المؤلف وجدان الأمة على طول تاريخها ، بأغانيه الشعبية وعكس فيها آمالها وآلامها ، ومخاوفها وأحلامها والذي يسمح بدراسة هذه النصوص الشعبية لاستخلاص ما يمكن أن تقدمه لنا جوانب مهمة في تكوين الوجدان الشعبي عموما².

ولا شك أن المغني الشعبي أو المؤلف قد استلهم مواضيع أغانيه من اهتمامات الشعب وميولاته، والحقيقة أن كثيرا منها في جوهره تعبير فني عن وجدان الناس، كما أنه يقدم تصويرا وثيقا إلى حد كبير لحياتهم وعاداتهم، وقيمهم الأخلاقية ، فإذا جاء نظم هذا الجانب نظما صحيحا، أمكننا أن نخرج بصورة شاملة لأسلوب حياة أصحاب هذه الأغاني وأن نمسك في أيدينا مفاتيح أساسية يمكن أن

¹ ريتشارد دورسون - نظريات الفولكلور المعاصرة - تر: محمد الجوهري، حسن الشامي ، دار الكتب الجامعية ، مكتبة التراث الشعبي ، القاهرة ، يوليو 1972م ص 16

² أنظر: فاروق خورشيد - الموروث الشعبي - ص 11

نفهم بها بعضاً من حياة الماضي والعادات التي هجرت والتي لم تعد قائمة فعلاً، كما يمكن أن نفهم الحاضر وعلاقته أيضاً¹.

وأولى هذه المصادر التي تعتمد عليها الأغاني الشعبية ذات المضامين الاجتماعية: العادات الشعبية التي تعد ظاهرة أساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية الإنسانية، وهي حقيقة أصيلة من حقائق الوجود الاجتماعي، تؤدي الكثير من الوظائف الهامة عند الشعوب البدائية، كما عند الشعوب المتحضرة، في حالة الاستقرار أو حالات الانتقال والاضطراب والتحول، ومن البديهي إذن أن تكون في أدائها لهذه الوظيفة في مجتمع معين (محدود بزمان ومكان معين) ترتبط بظروف هذا المجتمع وواقعه² والتي ترجمها المبدعون في مختلف الأشكال الأدبية الشعبية من أمثال وحكايات وألغاز وأساطير، وخاصة أغاني شعبية تحفظها من الضياع لارتباطها باللحن فضلاً عن الكلمة.

كما أن الأغنية تستقي بشكل أعم مادتها من حياة الناس، بكل أشكالها فهي ترصد هذا العالم الذي تحيا فيه، وتتلقى منه الأهم ثم المهم مما يقدهه الناس لتستلهم منه معانيها وألفاظها، خاصة وأن عناصر الفنون الشعبية تتطور، وتتغير مع نظريات موازية تحدث في بيئة الإنسان المادية والاجتماعية، فالفن الشعبي بما فيه الأغنية ليس مجرد بقايا ورواسب ثقافية، وإنما يعتبر حكمة من حكم التاريخ وثمره لحياة الإنسان كمجتمع ورمز لأصالة هذه الحياة³.

¹ أنظر: المرجع السابق، ص 205

² أنظر: محمد الجوهري. علم الفولكلور، الأسس النظرية والمنهجية. ص 105.

³ أنظر: نادية الدمرداش، علا توفيق. مدخل إلى علم الفولكلور، دراسة في الرقص الشعبي. ط1، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2003م، ص 65

ومن حياة الناس استمدت الأغنية الشعبية بالوادي الأبيض مواضيعها، من الطبيعة بكل عناصرها، من العادات الشعبية بكل أشكالها، من أنين المرأة وسرورها، من كل العثرات والانتصارات، أشع نور هذا الشكل الأدبي الشعبي، وظفر بوسام الاستحقاق، لأنه من النماذج الأدبية التي تنبض بالحياة، وتعكس شتى الانشغالات والثقافات التي تشربها المجتمع.

وتعد إشكالية التصنيف أولى القضايا المطروحة في ميدان البحث في الأغنية الشعبية، والتي اعتمد فيها الباحثون طبيعة الموضوع الذي تعالجه الأغنية لتحديد مجالها ، أو باعتماد مناسباتها لضبط أنواعها، وسنعرض بعضا من هذه التصانيف .

يذكر محمد الجوهري الأغاني بأنواعها المختلفة ، حسب المناسبات والبيئات:

أ- حسب المناسبات المرتبطة بدورة الحياة (أغاني الميلاد والختان والخطوبة والزفاف والزواج والبيئات) ، والمناسبات الدينية (مولد النبي) وأغاني الحجيج (في الذهاب والعودة)، وأغاني العمل (أغاني منتظمة الإيقاع وغير منتظمة الإيقاع).

ب- حسب البيئات والجماعات البشرية المختلفة كأغاني البدوة المجردة والغنيوة والشثوية ، ومجرودة العصا.¹

بينما يقدم أحمد علي مرسى تصنيفا آخر، يستند على طبيعة المواضيع وكذلك الشكل، حيث أدرج الموال كنوع من أنواع الأغنية، رغم أنه شكل من أشكالها، وتحدد الأنواع التي ذكرها فيما يلي:

1- الموال

2- أغاني الطفولة والميلاد، ترقيص الأطفال، الختان.

¹ أنظر: محمد الجوهري . علم الفولكلور. ص118.

3- أغاني ألعاب الأطفال.

4- أغاني العمل.

5- الأغاني الدينية.¹

أما صفوت كمال فيرى أن التصنيف العام للأغنية الشعبية يكون على أحد

الأساسين:

1- مناسبة الأداء أو:

2- الموضوع.²

ولما كانت الأغنية الشعبية من أهم الأشكال الأدبية الشعبية التي تساير الإنسان في مختلف فترات حياته ، أودعتها الشعوب انطباع الأحداث فيها ، في عصورها المختلفة وأطوارها المتباينة ، في فترات القوة والضعف وظروف الشدة والرخاء ، وأيام السعادة والشقاء ، فهي سجل يجب أن يبقى عليه ، وتراث يلزم أن يعتز به اعتزاز الشعوب بقوميتها وسعادتها بالشعور بالانتماء إلى الوطن، لما في بقاءه من أثر عظيم على ترقية هذه الفنون وتطويرها³. وإستدلالات على ما للأغنية الشعبية من أثر في حياة الشعوب على المدى البعيد ، نستشهد بأغاني العميان وأناسيدهم بالبلقان ، والتي حفظت للبلقانيين تاريخ أسلافهم ، وقصص أبطالهم، وصاننت لغتهم من الضياع والنسيان⁴ وهذا خير دليل على ما للأغنية الشعبية من

¹ أنظر: أحمد علي مرسي . الأدب الشعبي وفنونه . ص 117 إلى ص 173.

² أنظر: صفوت كمال . مدخل لدراسة الفولكلور الكويتي . ط3، وزارة الإعلام، 1986، ص 149.

³ أنظر: موديكاريليس وأرنولدباكيه . في جمع الموسيقى الشعبية. تر: نفيسة الغمراوي، مطبوعات المجلس الأعلى

لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، 1963م، ص 05

⁴ أنظر: محمد فهمي عبد اللطيف . ألوان من الفن الشعبي . المكتبة الثقافية، المؤسسة المصرية العامة للكتاب

والتأليف والترجمة والطباعة والنشر، يونيو 1964م، ص 07

سلطان في أوساط مرديها ، ومايمكنها أن تخلده بلحنها الشجي الذي تتناقله الأجيال، وطبيعة مواضيعها التي تستقطب اهتمام المستمعين.

ونذكر أهم المناسبات القديمة والحديثة التي تمارس أو تردد فيها الأغاني الشعبية مثل: مولد طفل وغناء ههددة الطفل والختان واحتفال الأطفال بمنتصف رمضان والأعراس وإعلان النصر وعيد الفطر المبارك وعيد الأضحى المبارك والمولد النبوي والحصاد والأسفار والبحرية وأغاني العمل.¹

أما عن تصنيف النصوص الشعبية المجموعة من الوادي الأبيض، اخترنا تصنيفا موضوعاتيا، يقينا منا أنه التصنيف الأنسب لإستنتاج النصوص واستجلاء دلالاتها المختلفة ومدى ذيوعتها بين أفراد المجتمع، كما يمكننا الوقوف عند أقدم الأغاني الشعبية، معتمدين منهج العرض والتحليل والمقارنة والاستنتاج.

وقد توصلنا إلى ثلاثة تصنيفات كبرى للأغنية الشعبية بالوادي الأبيض وهي:

I- أغاني المضمون الاجتماعي ويندرج تحته:

- أغاني تنويم الأطفال.
- أغاني ألعاب الأطفال.
- أغاني الختان.
- أغاني الزواج.
- الأغاني العاطفية.
- أغاني إستدرار المطر.

¹ أنظر: خلفان بن أحمد البرواني . الموسيقى العربية وقضايا الإيصال و التواصل مع التراث . المجلة العربية للثقافة التراث والموسيقى - المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ،السنة الرابعة و العشرون ، العدد الثامن و

- أغاني العمل
- II - أغاني المعتقدات الدينية والشعبية:
 - أغاني التوحيد.
 - أغاني الصلاة على الرسول . صلى الله عليه وسلم . .
 - أغاني الأولياء الصالحين.
- III - أغاني المضمون الوطني:
 - أغاني ما قبل الثورة التحريرية
 - أغاني الثورة التحريرية.
 - أغاني الاستقلال

المبحث الأول: أغاني المضمون الاجتماعي

أدرجنا في أغاني المضمون الاجتماعي، كل النصوص الشعبية التي عالجت موضوعا اجتماعيا، بغض النظر عن طابعها العام، سواء كانت ذات مسحة حزينة أو العكس، مادام التراث بكل أشكاله المادية والمعنوية حافزا من حوافز البقاء ووعي بالاستمرار في الحياة، بل يمثل مرجعا للجماعة وأفرادها ، وما يؤكد سلطة التراث أن أفرادها تحتكم إليه عند الخلاف، وعند الصراع مع الآخر في الوقت نفسه لأنه نتاج البشر، ينمو بنموهم ويتطور بتطورهم، ويتطور النظر إليه، بل إن ثبات حركيته مقترن بما عليه هذه الجماعة من تحضر أو تخلف¹، وهذا يعني أن الأغنية الشعبية تعد رمزا من رموز أية أمة، لأنها تعكس أبعاد الحياة الاجتماعية بكل صدق وأمانة وأولى الأنواع التي نجدها في أغاني المضمون الاجتماعي:

1- أغاني الأطفال:

على عكس ما هو شائع في مناطق أخرى من الجزائر ، التي تزخر بهذا النوع الغنائي ، نجده يقل إلى درجة العدم بمنطقة -الوادي الأبيض- ولم نعثر إلا على أغنيتين: أغنية في تنويم الأطفال ، وأخرى من أغاني ألعاب الأطفال ولهذه الظاهرة أسبابها، وسنحاول تحليلها بعد تقديم النماذج المتوفرة لدينا.

تعد أغنية "سوسم أعلا" من الأغاني الشعبية القديمة والمعروفة بالوادي الأبيض، تناغي فيها الأم ابنها قصد تنويمه، وقد اعتمدت هذه الأغنية أسلوب الحوار، أين تحاور الأم ابنها "علا" وهو تصغير لاسم "علي"، طالبة منه أن يكف

¹ أنظر: مدحت الجيار . الشاعر والتراث . دراسة في علاقة الشاعر العربي بالتراث ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، الإسكندرية ، (د. تا) ، ص 110

عن البكاء، فهو عزائها الوحيد بعد اختفاء والده، تشكو له وحدتها وألمها ، وفي كل مرة تغل له سبب غياب والده بحجة جديدة ، عساها تقف بذلك وتسلم أمرها للواقع الذي لا مفر منه.

تخبر الأم ابنها برحيل والده للجهاد من أجل الدين ، وبعزمها على نسج برنوس وقشاب، وهو مقطع يوحي بفترة الاحتلال الفرنسي، أين عانت المرأة كثيرا بسبب التحاق الأزواج والأخوة بالجبال للمشاركة في تحرير الجزائر ، فخلفوا وراءهم تكالى ويتامى يصارعون وحشية الإستعمار وقساوة الحياة.

تقول الأغنية:

أسكت يا علا ، أسكت يا بني	سُوسَمَ آعَلَا سُوسَمَ آمِي
لننسخ برنوسا و قشاب	أَنِّي أَعْلَاوُ دُو قَشَابِي
أبوك رحل و هام في الغابات	بَابَاكَ إِرُوخ يَنْتَعُ لَعَوَابِي
إنه يجاهد من أجل دين النبي	آثُ إِتْجَاهْدُ فِدِينُ نْ نَبِي
أسكت يا علا ، أسكت يا بني	سُوسَمَ آعَلَا سُوسَمَ آمِي
لننسخ برنوسا لأبيك	أَنِّي أَعْلَاوُ إِبَابَاكَ
أبوك رحل و تركك	بَابَاكَ إِرُوخ إِبْعَذَاكَ
تزوج رومية و ترك أمك	يُوي تَارُومِيثُ يَجَا يَمَايْكَ
أسكت يا علا ، أسكت يا بني	سُوسَمَ آعَلَا سُوسَمَ آمِي
لننسخ برنوسا مزركشا	أَنِّي أَعْلَاوُ دَا بَرِيَاشُ
أبوك رحل و هام بين الأعراش	بَابَاكَ إِرُوخ يَنْتَعُ لَعَرَاشُ
أسكت يا علا ، أسكت يا بني	سُوسَمَ آعَلَا سُوسَمَ آمِي

أَتَيْ أَعْلَاؤَ ذَا بَرْكَانُ
لننسخ برنوسا أسودا
بَابَاكَ إِرُوحُ أُوذِ إِيْبَانُ
أبوك رحل و لم يظهر

وتطلب الأم في كل مرة من ابنها حتى يصمت ويكف عن البكاء ، لتتسج برنوسا لوالده ، هذا الأب الذي رحل وترك أمك وتزوج أجنبية ، وهذا المقطع الغنائي يصور مرحلة الهجرة إلى فرنسا في فترة الثلاثينات والأربعينات.

ومازالت الأم ترجو من ابنها أن يصمت لتتسج برنوسا مزركشا ، وتخبره أن والده هام بين القبائل . أما في المقطع الأخير فتتسج برنوسا أسود ، لأن والد هذا الصغير رحل ولم يظهر .

ورغم أن الأم في هذه الأغنية تناغي ولدها ، فيقبل بسمعه على مناغاتها، ويتلهم عن البكاء¹ إلا أن الحقيقة تتعدى هذا الهدف إلى أهداف أخرى تتمثل في تصوير الوحشة التي تشعر بها المرأة جراء ابتعاد زوجها عنها - مهما اختلفت الأسباب - ولا تجد لنفسها عزاء سوى ابنها، تشكو له أنينها الصامت ، وقلة حيلتها في شكل أغنية ، تخفف بها عن نفسها وطأة الحزن.

كما عكست الأغنية الحرفة التي تشتغل بها المرأة -بالوادي الأبيض- هذه الحرفة التي تعلم الصبر وطول البال، وهي حرفة النسيج التي مازالت تتباهى بها المرأة -إلى يومنا هذا- والتي لها دلالة طقوسية تعود إلى العصر القديم، سنتناولها في الفصل القادم.

¹أنظر : شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الإبراهيمي . المستطرف في كل فن مستظرف - دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص419

وقد يبدو الأمر مثيرا للتساؤل من أن تخلو المنطقة من أغاني الأطفال ، ما عدا الأغنية السابقة ، وهذا راجع إلى أنّ المرأة في منطقة الوادي الأبيض ملكا لوقتها ، تسند لها الكثير من الأعمال داخل البيت وخارجه ، فهي تقصد الينابيع باكرا لجلب الماء ، وتصعد أعالي الجبال لتحضر حزم الحطب وتساعد الزوج أو غيره في فلاحه الأرض، وترعى قطيعها وتمخض شكوتها، وتحضر خبزها إلى غيرها من الأعمال التي تحتاج إلى وقت وجهد ، لذلك غالبا ما كانت تضطر عند خروجها من البيت إلى ربط ابنها الذي يحبو من وسطه ، بمقدار مسافة معينة ، لا يقوى بعدها أن يصل إلى شيء يؤديه ، إلى أن تعود من عملها ، خاصة إذا كانت الأم بمفردها في البيت ، وهذا ما يفسر قلة هذا النوع من الأغاني الشعبية بالمنطقة -حسب رأينا-.

أما عن أغاني ألعاب الأطفال فنجد أغنية تقول كلماتها:

أَرْقُصْ أَرْقُصْ آبِيرْبِيْعٌ* أَرْقُصْ أَرْقُصْ يَا بِيرْبِيْعِ
أَكْدَوِيْعٌ ثِيْمَلَالِيْنُ أُوْفِيْعَرْ لأحضر لك بيض الثعبان

كثيرا ما يستهوي انتباه الأطفال -بالوادي الأبيض- كل شيء في الطبيعة الخلابة التي يحيون فيها ، بما فيها الطيور بكل أشكالها وأنواعها، فيحفظون أسماءها، ويصطادون بعضها.

ومن بينها طائر تعود الأطفال على رؤيته وهو يبسط جناحيه في السماء ويهزهما كأنه يرقص، فيترجاه الأطفال من خلال تلك الأغنية أن لا يكف عن الرقص، مقابل بيض الثعبان الذي سيحضرونه له ليأكله، وهم يشعرون بالمتعة أثناء

* بيرييع: طائر من فصيلة الجوارح.

ترديد هذه الأغنية والتفرج على ذلك الطائر الجميل ، لأن هذه الطريقة في اللعب ، المقترنة بالغناء وسيلة الطفل لتوسيع مدى ثقافته ومعلوماته ومهارته ، وبالتالي يغدو عاملا من عوامل التكيف والمواعمة الضرورية بينه وبين البيئة التي يعيش فيها، وبها ينفس عن مشاعره ، ويعبر عن نفسه ، ويتوسل بها لتحقيق أغراضه وآمانيه.¹

وقد يؤلف الأطفال بعضا من هذه الأغاني الشعبية أو يقتبسون بعضها من أغاني الكبار بعد تحويلها لتلائم طبيعتهم الطفولية وعفويتهم.²

وتكمن أهمية هذا النوع من الأغاني الشعبية، في أنها تكشف لنا جوانب خفية في شخصية الأطفال ، كما أنها تعكس طبيعة المواضيع التي تسترعي اهتمامهم، رغم قلتها بالوادي الأبيض، ومن المحتمل جدا أن يكون هذا النوع من الأغاني قد ضاع مع الوقت، لعدم ترديده أو إهماله من قبل الباحثين، فاندثر كما اندثرت أغاني شعبية أخرى كثيرة.

2- **أغاني الختان**: عرف العرب الختان (الطهور) بعد الإسلام وقبله وإقرار الإسلام له عملية تتعلق بالنظافة والصحة العامة³ ونظرا لتقديس سكان الوادي الأبيض للإسلام ، قدسوا كل ما أقره واستحسنه، فكانت مناسبة الختان عندهم من أروع المناسبات التي يخصصونها بعادات وأغان شعبية خاصة ، ويقلدون الطفل مكانة رفيعة إحتفاء بيومه، خاصة إذا كان البكر، أو وحيد والديه.

¹ أنظر: عيسى الجراجرة. الأغنية الشعبية في قطر . مجلة التراث الشعبي - ع 09 ، السنة العاشرة ، دار الجاحظ، وزارة الثقافة والإعلام ، 1979م ، ص 182.

² أنظر: لطفي الخوري . فولكور الأطفال . مجلة التراث الشعبي ، ع 06 ، ص 10، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، الجمهورية العراقية، 1979م ، ص 16.

³ أنظر: عيسى الجراجرة. الأغنية الشعبية في قطر . مجلة التراث الشعبيص182

وللغناء مناسبات وقف على المرأة وحدها أو تكاد، نذكر منها أغاني الختان والاستحمام والفظام ، وملاعبة الطفل وعند تنويمه والمفاخرة به.¹

وهي نفس المناسبات التي تحظى فيها المرأة بالوادي الأبيض بمرتبة الشرف لتسهر على إحياء حفل الختان ، مرددة أحلى الأغاني المعروفة بالمنطقة والمعدة خصيصا لهذه المناسبة ، فهي لم تترك عادة من عادات الختان ، إلا وخلدتها بأغنية شعبية ظلت تتداول إلى الحين ، وهذا يعكس صدق تعبير النص عن الوجدان الجمعي وصدق تعبيره عن الأحداث.²

تشرق الأفراح والليالي الملاح بالوادي الأبيض إذا كان المولود ذكرا، وتدبح له الذبائح تبركا به، وكان سكان الوادي الأبيض قديما يفضلون إتمام هذه الفرحة بإقامة حفل الختان في الأسبوع الأول من ولادته، أو أكثر بقليل ،مراعاة لصغر سنّه الذي يسهل من إلتئام جرحه بسرعة، بينما يقصر أو يطول سن الختان في الوقت الراهن لتعاقب الأجيال، واختلاف نمط تفكيرها.

ولكن الذي لم يتغير بالوادي الأبيض، عادات الختان في حد ذاتها، والتي مازال السكان متشبثين بها، خاصة عادة "الباندو" وهي عادة تضرب بجذورها عمق التاريخ ، وقد سجلت الأغنية الشعبية حفل الختان لحظة بلحظة وصورته أحسن تصوير، وخلدت كل العادات التي تُحيا في هذه المناسبة.

إنّ أول عادة تمارس في حفل الختان هي عادة تسوية شعر الطفل، والتي يحييها سكان الوادي الأبيض أياما قبل عملية الختان، تزيينا لمظهر الطفل وتحسين

¹ أنظر: محمد الجوهري -علم الفولكور . ص505

² أنظر: فاروق خورشيد . الموروث الشعبي . ص 191

هياته ، ويشترط حضور الجد من الأم ، وأخواله وكبار العائلة وهي عادة قديمة جدا ، لم يفت المغني الشعبي تخليدها بأغنية شعبية تحافظ عليها .

يتولى جد الطفل أو خاله بتبليل شعر الطفل وتسويته بشكل دائري ، أما حاليا فتكون هذه العملية رمزية ، بعد أن يقص الطفل شعره عند حلاق عصري ، تحضر العائلة للجلسة وتقص قليلا من شعره لإحياء العادة ، أين تتعالى أصوات النساء مرددات الأغنية الشعبية التي تحمل هذا المدلول :

يَا نُبِيَّ بَدِّ أُرُقُلْ بجاه النبي قف ولا تهرب
سَالْحَسَّ أَكَنْدَوْرُ بلل شعرك لنقصه دائريا

وتبدأ الأغنية بمناداة الرسول - صلى الله عليه وسلم - تبركا به ودرءا للطفل من كل شر أوعين أو حسد ، ثم يطلبون منه الوقوف، لتبليل شعره وقصه دائريا وتبقى النسوة يرددن هذه الأغنية حتى تتم تسوية شعره.

كما أن المنطقة تعرف عادة أخرى قديمة جدا ، تكشف عن نظام اجتماعي خضعت له ومازالت بعض رواسبه إلى اليوم وهذه العادة هي عادة "الباندو" ، أين يقوم أحوال الطفل ، والمقربين منه بالإشتراك ماديا لتحضير ما يسمى "أفذيح" ، الذي يملأ بأفخر الهدايا وأحسنها ، وينتقلون بعدها إلى مكان الحفل في موكب جماعي ، لتنهنته بهذه المناسبة .

يرحب بأحوال الطفل ، على وقع طلقات البارود وأصوات النساء الشجية

المرددة :

لَا لَآ ذُ الزِينِ الْفَجْرُ جمال سيدتي يلوح كالفجر
إِبُونْدَانُونُ أَوْسِينْدُ المهنتون حضروا

لآلَا دَا الزِينَةَ الْفَجْرَ جمال سيدتي يلوح كالفجر
إِبُونْدَانُونُ أُوسِينْدُ المهنتون حضروا

أما "الباندو" فهو جذع شجرة متفرع الأغصان (على شكل شجيرة)، يغرّس في أنية مملوءة بالتراب، ويعلق على أغصان الشجيرة مختلف الحلويات والشكولاتة، واللبان والبسكويت والحناء وبعض الفواكه كالعنب مثلا، وتزين بمختلف الألوان الزاهية، ويوضع بجانبه الهدايا التي أحضرها بنوخولته كالأغطية والأقمشة والألبسة (للطفل والأم) والزرابي وغيرها ، وترحيبا بهم تردد الأغنية - المشار إليها سابقا- للفت انتباه المدعوين، ليتفرجوا على ما أحضروا من هدايا لتقييمها بالمنظور الاجتماعي.

وتؤدي عادة "الباندو" عدة وظائف مهمة ، فهي تضيي جوا من الفرح والبهجة على الصبي ، وتهيؤه نفسيا قبل وبعد عملية الختان ، حيث تشد انتباهه ، وتشعره بسعادة لا مثيل لها، بعد أن يعلم أن تلك الشجيرة المملوءة بالحلويات ملك له وحده. كما أن هذه العادة تؤكد مكانة الخال، التي يستمدّها من الأم في مجتمع لا تزال به رواسب من نظام أمومي ، عاشته هذه المناطق في فترة من فترات التاريخ ولا تزال بعض آثاره¹ إلى يومنا هذا.

إضافة إلى أن شجيرة "الباندو" ترمز للطفل وأغصانها المملوءة بالحلويات بمثابة الثمار، التي ترمز للخصوبة ، لهذا يمنع أكلها أو إنقاص أي حبة منها، خوفا على الطفل من أن تنقص قدراته الجنسية ومنه يتأثر فعل الإخصاب لديه ، وهذا

¹ أنظر: عبد السلام قادريوه . أغنيات من بلادي . دراسة في الأغنية الشعبية ، ط3 ، منشورات الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع - طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ، 1982م ، ص 278.

يعني أن هذه العادة بكل طقوسها التي تمارس تعكس ظاهرة الخصوبة والاستمرارية عند سكان الوادي الأبيض.

ويلبس الطفل ملابس الختان (جبة بيضاء، سروال أبيض، طاقيّة حمرة، شبشب أبيض وبرنوس أبيض) ويدعى هذا اللباس بالتعبير المحلي " تكبرين " أين تردد النسوة أغنية:

أوماً تَكْبِرِينَ * نْ وَذُبِيرْ
أخي بلباس الحمام
جَارْ أَتْرَكَابِينَ**
بين أتركابين

تشبه الأغنية الطفل بلباس الختان بحمام أبيض ، جالس فوق مقعد تقليدي، مخصص أصلاً للنسيج ، وتردد النسوة مجموعة من الأغاني الخاصة بهذه المناسبة، المتنوعة المضامين والإيقاعات، وكلها تدعو للمفاخرة بالطفل والدعاء له:

أوماً ذَافِرْ نْ وَذُبِيرْ
أخي جناح حمام
حَسْبَخْتْ ذَا زَرْفْ يَفُورْ
ظننته فضة تمشي
أرْبِي حَفْظَاسْ بَابَاسْ
ياربي أحفظ له أباه
طَوْلَاسْ ذِي - لَعَمْرَ لَابَاسْ
وأطل عمره كثيرا

تشبه الأغنية الطفل بلباسه المتميز بجناحي حمام أبيض ، يتبختر غير آبه بأحد ، يتفرق بياضه كأنه معدن الفضة تمشي على قدم وساق، ثم تأخذ الأغنية في الأخير طابع الدعاء، حيث تدعو لوالد الطفل بالرعاية الربانية وطول العمر.

* تكبرين: كلمة شاوية قديمة، تعني "لباس الختان".

** أتركابين: مفردة تركابث وهو مقعد تقليدي يعرف به البيت الشاوي ، يبني من الحجر والطين، تجلس عليه المرأة لتتسج.

وقد اختار مؤلف هذه الأغنية الشعبية تشبيه الطفل بالفضة، دون غيرها من المعادن الثمينة، لأنها من المعادن المفضلة عند الأمازيغ، تستعمل للزينة وكذلك لدرء العين عن الطفل منذ ولادته.

ونورد رواية أخرى لنفس الأغنية تقول:

أوما دَافَر نْ وَدُبِيرُ أخي جناح حمام
حَسْبَخْتُ دَا فُرُوخُ يُوبِيرُ ظننته عصفورا يسير

وتغنى بهذا الشكل في أعلى الوادي الأبيض (إشمول وضواحيها)، فبينما يشبه الطفل في الأغنية السابقة بالفضة، تراه الأغنية الثانية فرخ حمام صغير، يتبختر متباهيا ببياضه .

ولما يحين يوم الختان، تخرج النسوة قبل أن تتم عملية الختان في موكب نسوي بهيج، تحمل إحداهن قصعة فوق رأسها فيها بعض قطع السكر والحلوى، مغطاة بقماش أسود، وهن يفتحن غناءهن باسم الرحمن والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم:

بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
نَطْلُبُ رَبِّي
أَدْعَمُّ الرَّهْبَانِي

وأغنية أخرى تقول:

صَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ

صَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ

مُحَمَّدٌ وَعَالِي

قاصدات أرضا معينة ليحفرن ويملأن القصعة ترابا ، ويعدن أدراجهن من حيث أتين، وهن يغنين غناء جماعيا، تتوسطهن جدة الطفل أو إحدى قريباته المسنات تيركا بها، وهي تحمل القصعة، وما إن يصلن تعلق زغاريد النساء، وتؤخذ منها قصعة التراب لتوضع في قلب البيت، لتتم عملية الختان فوق ذلك التراب الذي تخط به قطرات دم الطفل.

إنّ هذه الطقوس الممارسة في عملية الختان، مستمدة من الطبيعة بعناصرها ودلالاتها، هذه الطبيعة التي عانقها سكان الوادي الأبيض، فأحبوا كل شيء فيها خاصة الأرض والتي تعني لديهم الرزق والخصوبة.

وتعد هذه الطريقة التي تتم بها عملية الختان، طريقة شعبية ذكية ، الهدف منها أن لا يرى الطفل منظر الدم فيفزع، وكذلك مراعاة لشعور الأم، فالدم عندما يخط بالتراب يفقد لونه الأصلي، وهي وقاية نفسية بالدرجة الأولى، بغض النظر عن الدلالة الطقوسية التي تحملها هذه العادة .

إنّ أغاني الختان والطقوس التي ترافقها تشير بوضوح إلى قيمة هذه المناسبة وأثرها في المجتمع¹ . هذا الأخير حافظ على هذه الطقوس ، ومختلف الأغاني الشعبية التي تعبر عنها، ولكنه ضيع بعضا منها بحكم الرواية الشفوية ، كما أنه

¹ أنظر: عيسى الجراجرة . الأغنية الشعبية في قطر. مجلة التراث الشعبي - ع09، ص182.

تخلى عن جملة من العادات ، إما لأسباب اجتماعية أو ثقافية ، أهمها : النظرة الدونية لبعض العادات القديمة ، أو لأسباب اقتصادية.

قديمًا كانت عملية الختان تتم بالبيت وفق الطريقة التقليدية على يد (المطهر)، بينما الآن قلما نجد من يتبع هذه الطريقة، بعد أن أصبحت العائلة تفضل الطبيب المختص ، فيؤخذ الطفل في موكب بهيج، تتعالى فيه أصوات النساء، مرددات أحلى الأغاني على إيقاع ضربات الدفوف ، إلى أن يدخل الطفل إلى الطبيب ، وكذلك الأمر بعد عودته إلى أن يصل إلى البيت ، ومن الأغاني الشعبية التي تردد أثناء عملية الختان:

طَهَّرْ يَا مُطَهَّرْ

صَحَّ لَيْدِيكَ

لَا تَفْجَعْ حُويَا

يَرْحَمُ وَالِدِيكَ

وهي أغنية مشهورة ومنتشرة في أنحاء كثيرة من الجزائر، مع بعض التغيير في بعض مقاطعها ، كما عثرنا على أغان شعبية ، تشبهها على مستوى بعض الألفاظ وكذا طريقة بناء النص ، كما هو واضح في الأغنية الشعبية المصرية التي تقول:

المغنية: يا مطاهر يا صغير تحت السجيفة

المرددات: يا مطاهر يا صغير تحت السجيفة

المغنية: أقطع له يا مزين بايدك خفيفة¹

وكذلك في أغنية شعبية أردنية تقول:

يا مطهر الصبيان وبالله عليك

لا توجع الصبيان و ندعي عليك

يا مطهر الصبيان إيدك إيدك

لا توجع (.....) نقطع إيدك

يا مطهر الصبيان بالقائلة

لا توجع بوششتين مايلة²

وهذا يعني أن هذه الأغنية قديمة، وقد انتقلت من منطقة إلى أخرى، وأدخلت عليها تعديلات وتغييرات تناسب أذواق المرددین لها، على مستوى الكلمة واللحن، ولهذا يمكن إدراجها في التراث العربي المشترك الذي يحتاج إلى جهود للوصول إلى تحديد مصدر هذه الأغنية ومسارها الجغرافي.

وبعد أن تتم عملية الختان -الوادي الأبيض- تنهياً النسوة لإعادة التراب المختلط بحبات الحلوى وبعض السكر والملح ، لأن الملح في المعتقد الشعبي، يطرد الأرواح الشريرة ، ويغير لون القماش الذي يغطي به من اللون الأخضر إلى اللون الأسود ويعاد التراب إلى المكان الذي أحضر منه أول مرة ، وهن يرددن أغنية قديمة تقول كلماتها:

¹ أنظر: أحمد على مرسي . الأدب الشعبي وفنونه . ص 131 وكذلك محمود أحمد فضل . الأغنية الفولكلورية للمرأة

المصرية . الهيئة العامة لقصور الثقافة ، مكتبة الدراسات الشعبية ، 2002م، ص 72

² أنظر : هاني صبحي أحمد . الأغاني الشعبية الأردنية . رسالة ماجستير ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب،

جامعة القاهرة، نيسان (أبريل) 1967م ، ص 77

طَيْشْنَا لَحَجْرَ وَالتَّرَابِ

جَبْنَا المَالَ وَالرَّجَالَه

بمعنى رمينا الحجر والتراب وعدنا بالمال والرجال، ورمزية الأغنية جلية في ألفاظها حيث تدل على الخصوبة التي يتمناها الأهل لهذا الطفل مستقبلا ، وبعد عملية الختان ، تردد النسوة أغنية أخرى تيمنا بالشفاء والتي تأخذ طابع الدعاء، والترحيب بكل الحاضرين.

الفرس يا سادة

أَلْفَرَسُ المَلَاخِ

يمتطيها صاحبها ، فيرتاح

يَجْعَلُهَا مُؤَلَاةً يَرْتَاخُ

أخرج الأولاد إلى الميدان

سَرَقَ ذُرَّارِي غَ . لَمْرَاخُ

عليها نتسابق

فَلَأْسُ أَنْمُضْرَاخُ

ونستنتج من كل ما سبق، أن الرموز التي توظفها أغاني الختان بالوادي الأبيض ، مستوحاة من الطبيعة ، والتي تعكس طبيعة هذا المجتمع بكل أبعاده.

3- أغاني الحب والزواج:

أ- أغاني الحب:

عنيت الأغنية الشعبية بالوادي الأبيض بتصوير مختلف المشاعر الإنسانية ، بما فيها مشاعر المحبين، وطبيعة هذه العاطفة التي تربط بينهم، وأهم إنشغالاتهم بلغة مهذبة، بعيدة كل البعد عن البذاءة والاستهتار بقيم المجتمع وأعرافه.

وتعد أغاني الحب من أقدم أنواع الغناء في العالم ، حسب رأي الباحث ألكسندر كراب¹، ومن ثم فإن التعبير عن هذه العاطفة السامية ومساها الطبيعي من أهم وظائف هذا النوع من الأغاني الشعبية.² ومن جملة ما عبرت عنه الأغنية الشعبية بالوادي الأبيض وصف المحبوبة والتوسل إليها، وتصوير لوعة الفراق والبعد عنها. إعتمدت الأغنية الشعبية أسلوب الوصف بنوعيه: الوصف الحسي يخص ملامح المحبوبة، ووصف معنوي يتعلق بمشاعر الحب التي أسرت قلوب المحبين. أما عن الوصف الحسي، فعثرنا على هذه الأغنية التي تصور لنا جمال الحبيبة ورشاققتها، ونعومة شعرها وبريقه وغازرته.

أَهْمَامَةٌ وَهَمَامَةٌ*

يَارْقُبَةَ لَحْمَامَةَ

سَالَفُ رَيْشِ نَعَامَةَ

يَا زَرْقَةَ لَوْشَامَا

غالبا ما توظف الأغنية العاطفية بالوادي الأبيض أسماء محبوبة ومنتشرة مثل: همامة ، وريدة ، لويزة.....، كرمز للمحبوبة عموما ، ومن علامات الجمال التي يذكرها هذا النص الرقبة ، الشعر البراق والغزير، الوشم ، وهي أهم معايير الجمال عند الرجل قديما -بالوادي الأبيض- ويشيع في الأغاني الحديث عن أحد

¹ أنظر: جبريل حمد الأغنية الفولكلورية في العراق . مجلة التراث الشعبي - ع01، السنة السابعة،المركز

الفولكلوري في وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة ، بغداد، 1976م ، ص 177

² أنظر: أحمد علي مرسي . الأدب الشعبي وفنونه . ص 146

* يشيع اسم همامة عند الشاوية

الطيور، التي تشارك الإنسان عاطفة الحب أو اشتهرت بأنها تحب كما يحب الإنسان، ويتصدر هذه الطيور "الحمام"، فهو في المخيلة الشعبية مثال للحب الرقيق. والعواطف الهادئة والوفاء.¹

وعلى ذكر الوشم في هذه الأغنية، نستشهد أنّ النص قديم قدم الوشم بالوادي الأبيض، أين كانت المرأة تستعين به لتزيين وجهها باستعمال نبات (هيزورين نُووشَن)^{*} لتتحصل على لون أزرق قاتم، بينما استغنت المرأة عنه اليوم.

وهذه الصورة التي قدمتها لنا هذه الأغنية الشعبية، هي صورة صادقة عن المرأة الشاوية - قديما - حيث مازالت العجائز، تحتفظن بوشمهن وظفائرهن الغزيرة الناعمة، ويمنعن حفيدتهن من قص شعرهن، لأنه مازال معيارا من معايير الجمال.

إلى جانب الرقبة والشعر والوشم، تتغنى أغنية أخرى بأسنان مرصوصة كحبات الجواهر، وعن ثغر باسم يزيد من لوعة البعاد، لهذا يستعجل الحبيب لقاء حبيبته، فيضرب لها موعدا بالغد القريب.

تقول الأغنية:

يا مرصوصة الأسنان	أَوْه مَبْرُومَةُ النَّابِ
آيا خالي، خالي	أَوْهَا خَالِي خَالِي
تعالى غدا لنمرح	أَرْوَاحُ أَدْتَشَّا أَنْرَارْ
يا الحمامة البرية	أَلْحَمَامُ الْبَرِيَّةِ
تعالى تعالى نمرح	أَرْوَاحُ أَرْوَاحِ أَنْرَارْ

¹ أنظر: أحمد علي مرسي . الأدب الشعبي وفنونه . ص 154.

* عنب الذئب

أَلْحَمَامُ الْبَرِيَّةِ يا الحمامة البرية

ومن الشجر الذي أسر قلب الحبيب ، إلى نظرة خطفت العقل والروح، وصدق من قال العين تعشق قبل القلب، فبمجرد أن نظرت إليه الحبيبة نظرة حب وإعجاب، ذاب في هواها وقرر أن يكسب ودها بالزواج منها، أو بالكلام المعسول حتى يتمكن حبه منها، على شاكلة الأغنية الآتية:

قَاعِدَةٌ فِي الْبَابِ

خَزْرَتْنِي ذِيكَ الْخَزْرَةَ

خَزْرَتْنِي ذِيكَ الْخَزْرَةَ

نَدِيكَ بِالْمَالِ

وَلَا نَدِيكَ بِالْهَدْرَةِ

وتظل لغة العيون من أقدم اللغات التي جمعت بين المحبين ، لأنها تأسر القلوب وتضعفها ، وقد اعتمدت الأغنية الآتية على أسلوب المحاورة بين الطرفين، فبعد أن أعلن الحبيب عن حبه ، وذهاب عقله من شدة جمال حبيبته ، تصرح هذه الأخيرة بعواطفها ، وتفصح عن خلجات نفسها ، عن إعجابها بعيونه ، وقبولها الارتباط به :

وَأَقْفَةٌ فِي الْبَابِ

زَيْنَكَ هَبْلَنِي

أَعِينُوا شَرَّادُ

أَرْوَاحُ أَدِينِيَا

أَعِينُوا شَرَّادُ

أَرْوَاحُ أَدِينِيَا

أما عن الوصف المعنوي ، ونقصد به وصف النص لمختلف المشاعر ، التي يعيشها المحبون جراء البعد أو الحب أو العجز المادي الذي يحول دون بلوغ المنى . وهذا نص يصور لوعة المحب وأنيته، فقد رمز للحبيب باسم (علاوة) ، الذي تخاطبه الحبيبة وتشكو له من قلب عليل ، راجية من المولى - عز وجل - أن يشفيه أو يعجل بموتها، لأنها لم تعد تقوى على تحمل ألم هذا الحب

أَعْلَاوَهُ	أَعْلَاوَهُ
أُولِينُو ضَامْرِيضْ	أُولِينُو ضَامْرِيضْ
إَعْيَا أَذِلَاوَا	إَعْيَا أَذِلَاوَا
أَذِلَاوَا	أَذِلَاوَا
أَنْطَلْبُ رَبِّي	أَنْطَلْبُ رَبِّي
اللَّيْلَةَ آتِلَاوَا	اللَّيْلَةَ آتِلَاوَا
أَعْلَاوَهُ	أَعْلَاوَهُ
أُولِينُو ضَامْرِيضْ	أُولِينُو ضَامْرِيضْ
يَعْيَا أَذِلَاوَا	يَعْيَا أَذِلَاوَا
أَنْطَلْبُ رَبِّي	أَنْطَلْبُ رَبِّي
اللَّيْلَةَ آتِلَاوَا	اللَّيْلَةَ آتِلَاوَا

ومما يورق الحبيب بُعد ديار الحبيبة ، فيناديها في النص الموالي باسم "لويزة"

للدلالة على الخاص بالعام ، حفاظا على كرامة الفتاة ، وعفتها.

هَالْوَيْزَةَ هَالْوَيْزَةَ
 وَطَرِيقَكَ بَاعَدْتَنِي
 وَطَرِيقَكَ بَاعَدْتَنِي
 وَادْعَ لِي دَعْوَةَ الْخَيْرِ
 وَالسَّمْرَةَ هَالْكَتْنِي

ويشكو من البعد في أغنية أخرى، ولا يجد أحسن من أمه ليفصح لها عن تألمه
 ولوعته بعد أن أصبح رهين حب امرأة.

أَهَاهَا دَلَالِي
 رَانِي مَرِيضٌ يَا الْمَيْمَةَ
 وَمَنْ قَلْبِي دَاخَلَانِي
 دَلَالِي دَلَالِي

وفي كل مرة نجد أن اسما جديدا ، تستهل به الأغنية الشعبية بالوادي الأبيض

من مثل: "وريدة"

هَا وَرِيدَةَ قَوْلِي
 كَلِمَةَ وَحِيدَةَ
 قَوْلِي كَلِمَةَ وَحِيدَةَ
 وَالْحَالَ بُعِيدَةَ
 الْمَيْمَةَ

يتوسل الحبيب ويترجى حبيبته، حتى تريح باله، وتشفي غليله بكلمة واحدة، قد
 تكون قبول الزواج منه أو قبول حبه، والملاحظ أن جل الأغاني تركز على بعد

المسافة التي تفصل ديار الحبيب عن ديار المحبوبة وربما كان هذا التوظيف من أجل الدلالة على الزمن النفسي الذي يشعر به هذا الحبيب.

كما يمكن تفسير عبارة "لميمة" بمعنى "أمي" ، والتي ترد في عدة أغاني شعبية بما يلي :

- من الأرجح أن تكون المرأة ، هي مبدعة هذه الكلمات ومرددها.
- تصوير الأغنية الشعبية لمرحلة من مراحل النظام الاجتماعي الذي عرفته المنطقة وهو "النظام الأموسي" ، الذي لم يبق منه سوى رواسب عالقة بثقافة السكان.
- أو أن تكون الأم أقرب شخص لقلب الإنسان ، خاصة في حالة الضيق ، لذلك كثيرا ما تذكرها الأغنية الشعبية بالوادي الأبيض.
- وقد نجحت الأغنية بشكل ملحوظ، في تصوير مثل هذه العلاقات العاطفية التي تتسم بالصدق، والاحتشام والاحترام لكل القيم والمثل التي تحكم المجتمع ، هذا الأخير الذي نظم العلاقات وضبطها ، وسمح بالتصريح بها ، في حدود ما تسمح به العادات والأعراف ، في أشكال فنية مختلفة كالأغنية الشعبية.
- كما تصور الأغنية الشعبية ، موقف المرأة من مثل هذه العلاقات والتي لا ترى هذا الحب إلا في إطار شرعي وهو الزواج ، وأن تزف على وقع الدف والغناء.

آواثْ وَبْرِيدُ يا عابري الطريق

أَتَأَفِّدُ بَابَا أَقْ . بْرِيدُ تجدون أبي في الطريق

أُوَيْثُ سَ - لُعْنَا ذُو بِنْدِيرِ خذوها بالغناء والبندير
يَا تَشْرَابْتُ لَحْرِيرِ يَا (تَشْرَابْتُ) * الحرير

وغالبا ما تعتمد الأغنية الشعبية أسلوب الحوار بين الطرفين (الرجل والمرأة) في مثل هذه العلاقات ، فتفصح المرأة -على غير عاداتها- عن حبها ، وهي تتأديه بصاحب البرنوس الأبيض ، ويرد عليها بأنه يبحث عن ابنة الأصل ، وتجيئه بأن شرطها هو أن يأتي بقلب صاف وبنية سليمة.

أَعْلَاوْ أَمَلَّانْ برنوس أبيض
أَلْيُوْ إِعْلَقْ ذِي لَهْلَانْ قلبي معلق في الهلال
مَانِي يَلِيْسُ أَلْحَلَّانْ ؟ أين ابنة الحلال ؟
أَرْوَاحِ اسْ - وُوْلُ دَامَلَّانْ تعال بقلب صاف

وتكريسا - دائما- لمبدأ الزواج ، الذي تسعى الفتاة للوصول إليه في مثل هذه العلاقات العاطفية ، كما هو الشأن في الأغنية التالية:

وَاهْمَامَةَ زَيْنِ الْهَدْبَةِ
وَاهْمَامَةَ زَيْنِ الْهَدْبَةِ
بِيْعِ الْقَمْحِ وَهِيََا مَرْحَبَا

يشبه الحبيب حبيبته بأجود أنواع القمح (الهدبة) وترد عليه بأنها تقبله خاطبا، بعد أن يبيع غلته من القمح، بمعنى بعد أن يستعد لتكاليف الزواج.

* ونعني بها تلك الخيوط الحريرية الرفيعة التي تزين بها المحارم ، ووظفت في هذه الأغنية للدلالة على رقة المرأة ونعومتها .

ولكن أحيانا أخرى، ليس للشباب ما يبيعه، حتى يبلغ مراده وهذا ما لمحت إليه الأغنية التالية إذ تصوره معدما، لا مخرج له رغم أن الحبيبة ابنة عمه، ويبقى الحوار من الأساليب الأولى التي تعتمد على شكل سؤال وجواب. ورغم أن الفتاة متعلقة بابن عمها، إلا أن ذلك لا يكفي لاستمرار تلك العلاقة.

بَنْ عَمِي يَا بَنْ عَمِي

بَنْ عَمِي لَعَزِيزٌ عَلَيَّ

وَصَلَّ لَخَبْرَ لِمَالِيَا

قَوْلُهُمْ لِأَبَاسٍ عَلَيَّ

فَاعْدُ فِي الْقَهْوَةِ يَحْمَمُ

مَا عِنْدُوشِ الْمَالِ يَنْكَلُمُ

ومن بين ما تصوره هذه الأغنية ، على خلاف ما تقدم من نصوص ، حبا بين أبناء العمومة ، وهو من أنواع الحب الموجود بالمنطقة ، نظرا لطبيعة النظام القبلي الذي يخضع له المجتمع ، ولكن القرابة لم تشفع لهذا الحبيب ، مادامت جيوبه فارغة ، وهي إشارة إلى "غياب الضمان الاقتصادي والاجتماعي وضراوة الحرمان"¹ المادي والمعنوي الذي يمنع الشباب من الزواج .

بينما تعد الأغنية الموالية من أطول الأغاني التي عثرنا عليها بمنطقة الوادي الأبيض، تروي حب شاب لفتاة اسمها (حدة) وربما يكون رمزا للمحبة لا غير، مصرحا بحبه الجنوني لها، متحديا كل العالم من أجل الظفر بها.

¹ همام طه . مؤشرات في الأغنية الفولكلورية العراقية . مجلة التراث الشعبي، ع1 ، س8 ، دار الحرية للطباعة،

أَوْحَدَهُ لآلَا ، أَوْحَدَهُ إِيَهُ

فِي قَلْبِي نَشْتِيكَ

نَدِيكَ زَوْجَ أَحْلَالَ

وَلَى نَهْرَبُ بِيكَ

مَا نَدِي الْهَجَالَةَ تَحْلِينِي عَرِيَانُ

مَا نَدِي الْعَزْرِيَةَ تَمْشِينِي حَفِيَانُ

مَا نَدِي الرُّومِيَةَ تُوكِّنِي رَمْضَانُ

مَا نَدِي الْهُودِيَةَ تَشْرِينِي الدِّيفَانُ

أُونَدِي طَفْلَةَ صَغِيرَةَ

مُؤَلَاتُ أَحْدَاشِ ن-عَامُ

أَوْحَدَهُ لآلَا أَوْحَدَهُ إِيَهُ

وَالْقَهْوَةَ يَغْلَانُ وَالسُّكْرَ يَبْنَانُ

يَالآلَا يَحْلَانُ وَالشَّمْعَةَ يَضُونُ

أُورِي أَقِ شَتَانُ

وَهَذَاكَ اللَّي كَانُ

يتحدث هذا النص عن حب جنوني لا عدول فيه ، فإما أن يتزوج الشاب (حدة) علنا وإما سيهرب بها ، ولا سبيل لحل آخر، والأغنية في توظيفها لحل (الهروب) ، لم تأت بشيء من الخيال، وإنما مرجعيتها ما يدور في المجتمع من ظواهر أصبحت تتدرج في باب عادات المجتمع ، كظاهرة "أسلح" من "اللاحق" حيث تلحق أو تهرب الفتاة مع من تحب، في حال رفض عائلتها الزواج منه، وتقيم في

بيت عائلته ، ويشاع الخبر في المنطقة بأن: "ابن فلان قد ألحق ابنة فلان" ، وبعد مدة وجيزة تستعد العائلة لتزويجهما زواجا علنيا.

ومن النادر أن تعارض عائلة الشاب زواجه ممن هربت معه، إلا في حالة واحدة، وهي الظروف الاجتماعية غير المساعدة للزواج ، كأن يكون الشاب بطالا، فتضطر العائلة إلى رد الفتاة إلى أهلها، مع تعويضها بمبلغ مالي يتراوح ما بين ثمانين ألف أو مائة ألف دينار.

وتواصل الأغنية وصف معايير الجمال عند الرجل بالوادي الأبيض، وما يفضله من النساء، فهو يختار الفتاة البكر، الصغيرة السن ، الناعمة الأظافر، ويرغب عن المرأة الأرملة ، التي تتركه مهملًا ، والمرأة "العزبية" وهو مصطلح يطلق على المرأة غير المتزوجة في الأصل، أو المطلقة، أو الأرملة والتي اختارت الحياة المتحررة في كل ما يخصها ، فترقص وتغني في الأعراس، وتعاشر من تشاء.

وينفر الرجل من العزبية ، كما ينفر من المرأة الأجنبية التي قد تشجعه على هتك حرمة رمضان ، وكذا اليهودية التي تعلمه شرب الخمر.

ومن كل النساء يختار الفتاة ذات الإحدى عشر عام ، دلالة على الزواج المبكر الذي كان سائدا بالمنطقة في فترة من الفترات.

ويقال أن هذه الأغنية الشعبية ، قد انتقلت إلى الوادي الأبيض ، من عرش النمامشة، نواحي خنشلة وتبسة ، ولما أعجب بها سكان الوادي الأبيض ، حفظوها ورددوها ، ومازالت تغنى إلى اليوم.

خَلْخَالَ عُوَيْشَةَ

فِي الرَّحْبَةِ

بِالدَّلَالِ سَاوَمْتُوْ

أَعْطَاوْا فِي الْعَرْوُونِ

عَشْرَمِيَّةَ

قَوَيْتُ الْمَالَ

وَأَدِيْتُوْ

وتتنصر الأغنية الشعبية للحب الذي ينتهي بالزواج ، فتهنئ الحبيبين بهذا

اللقاء :

شَاشْ يَبْرِقْ

الْحَالْ بَعِيدَا

قُولُو لَحْمِيدَةَ

رَاكْ جَبْتْ لُويزَةَ

شَاشْ يَبْرِقْ

الْحَالْ بَعِيدَا

قُولُو لَحْمِيدَةَ

رَاكْ جَبْتْ لُويزَةَ

ب- أغاني الزواج:

إكتسب الزواج سلطة شرعية واجتماعية لا مثيل لها، لأنه من العلاقات المباحة والمعتزف بها في كل المجتمعات الإنسانية، وهذه المصداقية هي التي جعلت الناس يبذلون الأموال الطائلة من أجل إحياء هذه المناسبة.

وقد خص المبدعون موضوعي الخطبة والزواج باهتمام كبير، فألفوا جملة من الأغاني الشعبية التي تخلد مختلف العادات الشعبية التي تحيا في مثل هذه المناسبات، وتأتي أهمية هذا الشكل الأدبي، من أنه يساير فترة الاحتفال بأهم المناسبات في حياة الإنسان، من الخطبة حتى الزفاف، فتصحب الاحتفال بليالي الفرح وليلة الحناء، وليلة الزفاف، وهي أكثر أنواع الأغاني انتشارا بين النساء عموما.¹

ونظرا لطبيعة النظام القبلي السائد بالوادي الأبيض، والذي يعتمد في تكوينه العرش الذي يعتمد بدوره الفرق المتكونة من عدة عائلات كبرى، أفرز نوعا من الزواج، كان سائدا قديما، وهو زواج الأقارب، وقد يعود هذا التقليد لعامل اقتصادي بالدرجة الأولى، المتمثل في المصالح المشتركة التي كانت تحدد مصير العرش، ومن أجل توطيد تلك العلاقة أكثر يتم الزواج فيما بين الفرق.

أما السبب الثاني، فيتمثل في أن مجتمع الوادي الأبيض ظل إلى زمن بعيد مغلقا على نفسه، يرفض أن يدخل بينهم غريب، حتى ولو عن طريق الزواج، ربما للحفاظ على الحرية التي كانت تحظى بها المرأة بين أهلها وعرشها، حيث

¹ أنظر: أحمد علي مرسي . الأدب الشعبي وفنونه . ص 146

تنتقل وتشارك في الأعمال خارج البيت كالزرع والبذر وجلب الماء والحطب دون حرج ولا غريب يعرقل نشاطها.

بينما الآن أصبح للشباب والشابة الحق في اختيار شريك الحياة بكل حرية، ولم يعد الزواج من داخل العرش شرطا ، بل تعددت أنماطه ، فقد يحدد السياق الاجتماعي نوع الخصوصيات التي يمكن أن تطبع النصوص والأنماط الشائعة منها، وقدرتها على الإحالة على مرجعيات متصلة بعصورها¹

ومن أقدم الأغاني الشعبية بالوادي الأبيض ، والتي تتحدث عن الخطبة:

يَا لَخَطَابَةَ

رَانِي جَيْتْ مَرِيضْ

شَاوَزْ بَابَا

وَالْحَالْ بُعِيدْ

وهي عبارة عن حوار بين شاب وشابة ، يخبرها أنه جاء خاطبا وقد أضناه الشوق والحب، وتجيبه بضرورة مشاوره والدها، مختصرة عليه عناء السفر.

و قد سائرت الأغنية الشعبية مواكب الحياة ، حيث المولود في ولادته، وفي ختانه ولعبه واختياره لشريكة حياته، ومن ثم زواجه² فسجلت كل لحظة من لحظات الزواج، وخلدت مختلف العادات التي تمارس في هذه المناسبة، كما أنها استوعبت الكثير من الموضوعات من مثل جمال العروس ولباسها وتحنيتها، ومرافقتها لبيت زوجها، وكذا صباحيتها.

¹ أنظر: عبد الله إبراهيم . التلقى والسياقات الثقافية - ط2 ، منشورات الاختلاف ، الجزائر، 2005م ،

² أنظر: عيسى الجراجرة . الأغنية الشعبية في قطر . مجلة التراث الشعبي ص 179

ب-1- أغاني تلبيس العروس (الثياب):

يُعنى الأهل بتحضير العروس وتزيينها، حتى تبدو في أحسن صورة ، لتروق زوجها وأهله ، وتبدأ هذه التحضيرات من يوم الثلاثاء، حيث تكحل العروس عينها بالإثمد، وتسوك أسنانها، وتذهب للاستحمام رفقة صديقاتها، أما يوم الأربعاء فهو يوم تلبيس العروس، أين يحضر أهل العريس مساء محملين بالجهاز بكل ما فيه من ألبسة داخلية وفساتين وأحذية وذهب.

وقبل أن يطأ أهل العروس عتبة الباب، يضرين الدفوف ضربا قويا لإبهار الحاضرات، وتتعالى أصواتهن بالغناء، ويبعدن أيما إبداع سواء على مستوى الأداء أو ضبط الإيقاع ، حيث يتم انتقاء أحسن المغنيات لإحياء هذه المناسبة ، التي يتنافس فيها المغنيات من كلا العائلتين ، وأحيانا أخرى يستعين أهل العريس بمغنية أو أكثر، تعرف بصوتها الشجي وأدائها المتميز لترافقهن في يوم تلبيس العروس ، وأول أغنية يستهل بها:

شجرة الحلوى	هَاسِطَةَ لَحْلَوَى
ملفوفة بالحريز	يُنْضَاسُ لَحْرِيْزِ
من أين أتينا إلى سيدتنا ؟	مَانَسُ إِيدُنُوسَا عَزْرَ - لَالَا ؟
من بلاد بعيدة	سِي لَبْلَادُ يَبْعَدُ

وتشبه العروس هنا بغصن شجرة ، الملفوف بالحريز، دلالة على عفتها وسمعتها الطيبة، وعلو شأنها ومقامها، لذلك تكبد أهل العريس مشقة البعد من أجل الوصول إلى هذه الجوهرة النادرة.

وتتوجه بعدها امرأتان إلى الغرفة التي تجلس بها العروس، حاملات للشموع، من أجل مرافقتها إلى الجهة المخصصة لأهل العريس، ليروها أولاً، وتقوم إحداهن بتلبيسها وتكون هذه الأخيرة عجوزا مسنة ومساعدة لها ، فينزعن ثياب العروس التي ترتديها ، بينما تتولى امرأتان أخريان احاطتها بإزار يسترها ، وتلبس العروس مما أحضره العريس ، بدءا من الملابس الداخلية إلى غاية الجبة وهن يرددن:

سِرْضِمْتَأَسِ إِلاَّ
ألبسوا سيدتي
ذَامْبَارَكْ ذَ لِبَاسْ
مبارك اللباس

والمقصود باللباس: تلبيس العروس الثياب ، الحذاء والمجوهرات.

ويروى قديما أن العجوز المكلفة بتلبيس العروس ، تجردها من كل ثيابها، ليتفقد النسوة جسدها ، وأرى أن الغاية من هذه العادة التي كانت تمارس قديما، هو كسر حاجز الخجل عند الفتاة ، وتهيئتها نفسيا لليلة الدخلة ، ونظرا لتغير المعطيات الفكرية والثقافية ، أصبحت العجوز - الآن - تكتفي بتغيير بعض من ملابس العروس الداخلية ، والغاية قديمة مازال الإعتقاد بها إلى اليوم ، وهو تفتيش العروس للتأكد من أنها لا تعلق حرزا أو سحرا تسيطر به على زوجها ، وأثناء عملية التلبيس تغني النسوة:

الطَفْلَةَ صَغِيرَةَ
يَاللِّي لَابْسَةَ جَدِيدَةَ
الطَفْلَةَ تَنَمَّتْ
حَلِي اللَّبْسَةَ تَنَقَّطْ

وهي تهنئة جماعية للعروس بالملابس الجديدة ، ودعوته للتمتع بها ولا تبالي
إن أتلفتها.

ب-2- أغاني تلبيس العروس (الحلي والمجوهرات):

تنتقل العجوز بعدها ، لتلبس العروس الحلي والمجوهرات ، التي اشتراها لها
العريس وهن يرددن:

الطَفْلة صَغِيرَة

دَارَتْ المَقْيَاس

أَتَهَلَّأَوْ فِيهَا

لَخِيَارِ النَّاسِ

وتتباهى النسوة بصغر سن العروس وجمالها ، وقد وضعت (المقياس)* في
معصمها ، وهي من أهم القطع الذهبية التي يهديها الزوج لزوجته بالوادي الأبيض،
إضافة إلى (محزمة لوبز) التي تعرف بها المنطقة والأوراس عموماً، وتنتهي الأغنية
بمدح أهل العريس وتوصيتهم خيراً بالعروس.

وعلينا أن نشير أن النساء اللواتي يلبسن العروس ، مخصصات لذلك ، ويتمعن
بثقة في أوساط الأهل والعرش كله ، وعليه نقول أنها صور من الواقع أضفى عليها
المبدع الشعبي لمسة فنية ، إنها أغنية شعبية امتزج فيها الفن بالواقع الاجتماعي ،
فصار شيئاً رائعاً يجمع بين الزمن والحدث ، في إطار من عادات وتقاليد قطاع كبير
من مجتمعنا بموروثاته.¹

* المقياس من الأساور الذهبية التي يعرف بها الشاوية، سميكة ومرصعة بقطع ذهبية لا يخلو معصم امرأة منها.
¹ أنظر: صفوت كمال . من فنون الغناء الشعبي المصري . مواويل وقصص غنائية شعبية، الهيئة العامة للكتاب ،

ب-3- أغاني تلبس الحذاء:

تحظى العروس بمنطقة الوادي الأبيض باهتمام منقطع النظير حيث تحتل مكانة الأميرة التي تحاط بالعناية والاهتمام، فحتى الحذاء تتولى العجوز تلبسها إياه، مرددات الأغنية التي تقول:

أَيَّرَ ضَارِقُ ارْكَاسِ انتعلي حذاءك
بِيسَمِ نَنْتَعِ هُمُورَاهُ بكِ نجول البلدان

تأخذ العجوز قدم العروس برفق وتلبسها الحذاء، وهي تغني، والبقية تردد من ورائها.

ب-4- أغاني الحناء:

وللزواج طقوس أخرى ترافقه كالحناء ، وما تستلزمه (العريس والعروس)، وما يصاحبها من أغنيات، تظل تردد طوال الفترة بين الخطبة والدخلة ، ولكل كلمات ربما تختلف من قرية لأخرى ولكنها جميعا تشترك في إطارها العام ونغمتها ومحتواها المضموني الكلي.¹

ويتجلى في الأغنية الشعبية الكثير من نوازع هذه البيئة واتجاهاتها، إذ أنها تدور في موضوعاتها ومعانيها على تملق العواطف وإثارتها² ، ومن هذه الأغاني، أغنيتي الحناء (اليدين والقدمين)، التي تغنى بالوادي الأبيض من قبل امرأة ، توكل لها عملية الحناء ، والتي تحضرها، بعد أن ترشها بماء الزهر وقليل من السكر، وتشكلها تشكيلا جميلا على يدي العروس وهي تردد:

¹ أنظر: حلمي بدير. أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث. ط1 ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، 2003م ،

² أنظر: محمد فهمي عبد اللطيف . ألوان من الفن الشعبي . ص 09

أَيَّرَ لِحْنِي نُبَابًا	حني حنة أبيك
ذ- لِحْيَانْتُمْ ذَائِيْتُمْ	في حياتك و حياة إخوتك
أَيَّرَ لِحْنِي نُبَابًا	حني حنة أبيك
ذ- لِحْيَانْتُمْ ذَائِيْتُمْ	في حياتك و حياة إخوتك

فالأغنية تهني هذه العروس ، لأنها ستتزوج في حياة والدها ، وإخوتها وتحني بحضورهم ، وهي تتعم بالدفء العائلي ، متباهية بهم أمام الناس.

وبعد أن تربط المحنية حنة اليدين ، تحني القدمين تحت وقع الأغنية التي تقول:

يَمُوقَّاسِدُ الْحَنِي	ربطت الحناء
ذَقْ نُورَازُ نَ لَالًا	في قدمي سيدي
يَمُوقَّاسِدُ الْحَنِي	ربطت الحناء
ذَقْ نُورَازُ أَلَالًا	في قدمي سيدي

وهكذا تتم مراسيم إلباس العروس ، وينصرف بعدها أهل العريس تاركين عجوزين وغالبا ما تكون الخالة أوالعمة ، المهم أن تكن من اللواتي يحظين بثقة وتقدير، لحراسة العروس - مثلما يقال- فنتام بينهما ، حتى صباح يوم الخميس.

ولهذه العادة بعد اجتماعي ثقافي ، يتمثل في منع العروس من تغيير ملابسها الداخلية خاصة ، وارتداء أخرى مسحورة تتمكن بها من خداع العريس ، فلا يعي ما يحدث في ليلة الدخلة ولا يفرق إن كانت العروس عذراء أم لا ، ويظهر أن سبب ممارسة هذه العادة هو تحصين الزوج من كل شيء خاصة السحر، لإيمان سكان الوادي الأبيض بمفعوله وقدرته على تعطيل العقول وتشويشها ، والسحر من المعتقدات الشعبية القديمة والمنتشرة في كل أنحاء العالم.

ب-5- أغاني تلبيس العريس :

على خلاف ما هو ذائع في مناطق كثيرة ** من الجزائر. والتي تولي اهتماما كبيرا لتلبيس العريس والغناء له ، نجد العريس في منطقة الوادي الأبيض أقل حظوة من العروس ، إذ لم تسجل لنا الأغنية الشعبية المراحل التي يحيها في هذا اليوم إلا قليلا.

يقوم شيوخ الفرقة أو العائلة بتلبيس العريس ، بعد أن يحجب بإزار وهم يرددون:

بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ

قَدَمْنَا رَسُولَ اللَّهِ

ومن عادة سكان الوادي الأبيض ، أن يرتدي العريس برنوسا أبيض من النوع الرفيع المنسوج من خيوط رفيعة ، ويسمى هذا النوع من البرانيس باللهجة المحلية (أعلا و لكبوب) بمعنى (برنوس الخيوط) وفي ذلك أغنية شعبية تقول:

أَهْيُوي سَوْشَعْبُوبُ فتى ذو الشعر الطويل

يِيرِضْ أَعْلَاوْ لَكْبُوبُ يرتدي برنوسا رفيعا

إِهْزَرَا يَمَّاسْ ذِ لَعْلُوبُ كم قاست أمه

أَنْطَلَبُ رَبِّي أَذْنُوبُ ندعو الله أن يعوضها

من مضمون الأغنية، يمكن أن نحكم على قدمها، أين كان الزواج صفقة اقتصادية -إن صح التعبير- فزواج الابن هنا ليس من أجل الزواج في حد ذاته، وإنما رافة بأمه التي أنهكتها كثرة الأعمال التي تقوم بها داخل وخارج البيت، ولهذا

** مثل الجنوب الشرقي.

لابد من يد عاملة أخرى تخفف عنها، وهذا يحيلنا إلى طبيعة النمط المعيشي الذي يحياه أهل المنطقة ، والذي يعتمد بنسبة كبيرة على المرأة ، إضافة إلى ما توجي به الأغنية من طبيعة اللباس الذي يرتديه العريس يوم عرسه ، وقيمة اللباس التقليدي عند سكان الوادي الأبيض.

وقد نفسر قلة الأغاني المخصصة للعريس مقارنة بأغاني العروس بسببين:

أ- الأول يتمثل في أن أغلب هذه النصوص من وضع المرأة، التي تعنى بكل ما يهمها ، لهذا تبدع مع كل لحظة تعيشها ، أغنية ترددها كلما تكررت المناسبة، بينما يقل اهتمامها عندما يتعلق الأمر بشؤون الرجل ، ولعل الأغنية الأخيرة تؤكد هذا التفسير، أين أولت المرأة أهمية للحديث عن طبيعة اللباس الذي يرتديه العريس والذي تتسجه هي ، وكذلك معاناة الأم وتعبها جراء تراكم الأعمال وصعوبتها، كدافع من دوافع الزواج.

ب . الثاني أن تكون مثل هذه الأغاني التي تغنى للعريس قد ضاعت، مع بقية النصوص الأخرى التي كف الناس عن ترديدها وبالتالي اندثرت.

في يوم الخميس تهيأ العروس للانتقال إلى بيت عريسها فترتدي فستانا أبيض، وتنتظر موعد قدوم أهل العريس مساء ، الذين يصطحبون معهم ثلة منتقاة من النساء المغنيات ، والضاربات للدفوف، المعروفات بين أوساط العرش بإجادتهن لذلك ، كل هذا من أجل زف العروس إلى بيت زوجها في جو بهيج على وقع الغناء ونقرات الدفوف ، لأنه أهم مظهر من مظاهر العرس في الوادي الأبيض ، والذي يحرص سكانه على الحفاظ عليه والتباهي من خلاله.

يجتمع أهل العروس في ساحة البيت بانتظار ضيوفهم ، مرحبات بهن بترديد
بعض الأغاني ، وما إن يصل أهل العريس يدخل النسوة مرددات مع أول خطوة:

أَسْعَيْنَا سَعِينَا

أَسْعَيْنَا بِالْمَالِ

جَبْنَاهَا وَجِينَا

فِي حَيَاةِ الرِّجَالِ

من عادات الجزائريين عموماً، أن تخرج العروس من بيت أهلها، بحضور
جماعة من الرجال ، يمثلون أعيان عائلتها أو عرشها كالأب والأعمام والأخوال
والإخوة وغيرهم ، إعلاء لشأن العروس وحفاظاً على كرامتها أمام أهل عريسها،
وتستقبلها كذلك جماعة أخرى من الرجال من أهل العريس ، وهي عادة منتشرة في
أنحاء الجزائر، وليست قصرًا على سكان الوادي الأبيض ، كما تشير الأغنية إلى بذل
النفيس من أجل هذا اليوم المشهود.

ويتولى الخال بالوادي الأبيض إخراج العروس وهي مغطاة بجزء من برنوسه

الأبيض ، تحت وقع طلقات البارود وأصوات المغنيات :

الغزالة

هَادْمُوْثْ

خرجت إلى السهول

هَرِيْدْ غَرِ الْقِيْعَانْ

من هي ؟

وَيْتْ بِيْلَانْ ؟

وقف الأسود

بَدْنْ بِيْرَانْ

وتردد هذه الأغنية عندما تشرع العروس في المشي، كأنها غزالة تخطو خطوات متثاقلة ، خرجت للسهوب المنخفضة ، تترصدها الأعين وقد أحيطت بالأسود رمزا للرجال الأقوياء لحمايتها، و تودع العروس بأغنية أخرى تقول:

سِيرِي يَا لَحْمَامَةَ

سِيرِي بِالسَّلَامَةَ

سِيرِي يَا لَحْمَامَةَ

سِيرِي بِالسَّلَامَةَ

وعلى هذا النحو ، عبرت الأغنية الشعبية عن أدق خلجات الإنسان ، بأروع لغة وأصدق إحساس ، وأعمق إدراك¹ و لم تنحصر وظيفتها في الاستمتاع وحسب فالمؤلف الشعبي اختار الحمامة؛ هذا الطائر الجميل والرشيقي ليشبه به العروس، دلالة على الرقة والطابع الأنوثي لها.

ومما حز في قلبي ، أن لا أعثر على أغان تخلد لعادة عريقة بمنطقة الوادي الأبيض ، وهي عادة " أَقْرَؤَاوْ " ، التي تتمثل في تسريح حصان أصيل ، ويوضع فوق ظهره ما يشبه الهودج ، مغطى بقماش أخضر، يجهز لنقل العروس من بيت أهلها إلى بيت زوجها.

وفي موكب نسائي تشد أم العريس بلجام الحصان ، وقد ركبته إحدى الفتيات لأن سكان الوادي الأبيض يتشاءمون من أخذه فارغا ، وتترجل النسوة وهن يضرين الدفوف ، ويبدان بأغنية ذات طابع ديني ، تفتتح بها مثل هذه المناسبات:

¹ أنظر: صفوت كمال . من فنون الغناء الشعبي المصري . مواويل وقصص غنائية شعبية،

بِسْمِ اللَّهِ
 الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ
 الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ
 نَطْلُبُ رَبِّي
 أَدْعَمَّرَ الرَّهْبَانِي

وهكذا يتولى ترديد الأغاني الشعبية إلى أن يعدن بالعروس، وهن محاطات
 بكوكبة من الرجال الذين يتولون إطلاق البارود بين الحين والآخر.

ونحن نرجح غياب الأغاني الشعبية التي ترصد وتصور هذه العادة إلى
 ضياعها واندثارها، خاصة بعد أن هجر سكان الوادي الأبيض هذه العادة، وعزوف
 الفتيات عن ركوب "أفروا"، لأنه يمثل عندهن نوعا من التخلف، في وقت يعج فيه
 العالم بأفخر وأفخم السيارات.

ومن الأغاني الهادفة أيضا، التي تتغنى بها مرافقات العروس بمجرد الوصول

إلى بيتها:

أَحَامُ انَّمْ أَلَا لَا	بيتك سيدتي
أَغْرَادُنُوسَا أَنْرَارُ	إليه جننا نمرح
لَقَصْرَ أَتَّكَ أَسِيدِي	قصرك يا سيدي
لَقَصْرُنْ - قُسْنُطِينَة	مثل قصر قسنطينة

يتحدث مضمون هذه الأغنية عن تشبيه بيت العروسين بالقصر الواسع الذي

يسع للعب، مثله مثل قصر قسنطينة، إشارة إلى قصر الباي بحكم هذه المدينة كانت

عاصمة لبيلك الشرق ، والغاية من الأغنية تشجيع العروس خوض غمار الحياة الزوجية ، مهما كانت صعبة.

ومثل هذه الأغنية تفند كل زعم ، يرى أن الأدب الشعبي بكل أشكاله ، يخلو من أي هدف ، ونحن نرى أنه ليس ثمة هدف أسمى مما تدعو إليه هذه الأغنية. بينما يرحب أهل العريس بأغنية أخرى تقول:

خَرَجْتُ لُوَيْزَةَ

ل . الدَّوَّارِ

لَا لَأَ لَعْرُوسَةَ

بِهَاتِ الدَّارِ

وتروى برواية ثانية تقول:

خَرَجْتُ الزَّيْنَةَ

ل . الدَّوَّارِ

لَا لَأَ لَعْرُوسَةَ

بِهَاتِ الدَّارِ

ومعناها أن البيت أشرق بنور العروس ، ترحيبا بها وإشعارها بالطمأنينة والراحة ، وفي أغنية أخرى تدعو المغنيات للعروس بصلاح الحال، متباهيات بكل ما اشتراه والدها لها من جهاز:

إِفْتَخِرِي بِأَبِيكَ

أَبُوكِ جَادُ لَكَ بِالْعَطَاءِ

يَا ابْنَةَ الدَّارِ

شَنَّعَ إِبَابَامُ

بَابَامُ إِقْوَامُ الْمَالِ

أَيَّلِيْسُ أُمَّ حَاْمُ

رَبِّي أَمْ أَقْدَ الْحَالِ . ندعو الله أن يسعدك

ومن دواعي تغني المجتمع بغنائياته المتعددة، هو التعبير عن فرحته بالحياة¹ بكل مناسباتها ، ولهذا تتنوع المضامين، إرضاء لأذواق الجميع، ومن أجل تحفيز البنات أكثر على الغناء، وضرب الدفوف، التي غالباً ما تتسبب في جرح السبابة والإبهام التي يتم بهما حمل الدف ، لذلك تشجعهن الأغنية التالية على المواصلة والتأوب.

لَبَنَاتُ لَبَنَاتَا

لَبَنَاتُ لَبَسُوا بَامِيلاً

الْمَعْرُوضُ يَبَاتَا

إِيْرُهُوَا لِي الْعَرْسُ اللَّيْلَا

الْمَعْرُوضُ يَبَاتَا

وَالْعَرْسُ اللَّيْلَا

تمدح أم العريس البنات ، وتدعوهن للمبيت من أجل إحياء ليلة ابنها، والأغنية

تشير إلى نوع من القماش الذي يسمى (باميلاً)

وفي نص آخر، يتم تهنئة الوالدين:

مبارك لأبيه

مَبْرُوكُ إِبَابَاسْ

مبارك لأمه

مَبْرُوكُ إِيَامَاسْ

¹ أنظر: صفوت كمال . من فنون الغناء الشعبي المصري . ص 142

إضافة إلى كل ما سبق ، تعد طلقات البارود إعلانا ببدء العرس ، هذا التقليد الذي ما زال سكان الوادي الأبيض يحافظون عليه ويتباهون به في كل مناسباتهم ، سجلته الأغنية وأذاعته بين أفراد المجتمع:

مبارك مبارك	مَبْرُوكُ مَبْرُوكُ
مبارك العرس	مَبْرُوكُ العَرَسِ
أطلق البارود	يُونًا البَارُودَا
أطلق البارود	يُونًا البَارُودَا
بخرطوش من النحاس	سُوقَرَطَاسُ نْ اَنحَاسِ
مبارك مبارك	مَبْرُوكُ مَبْرُوكُ
مبارك العرس	مَبْرُوكُ العَرَسِ

ويخصص يوم الجمعة لأهل العروس ، اللواتي يتفقدن ابنتهن وبعدها تحضر الأم وجمع من العائلة، وتبدأ النسوة في الغناء والزغاريد وهن يرددن:

ابنتي ابنة حكيم	يَلِي يَلِيْسُ أُوْدَوَادِي
ضربت العدو	هُوْتِي لَعْدُو
أغلقت فمه	هَفْنَاسُ إِيْمِي

وتفتخر الأم بابنتها ، التي حفظت لها كرامتها ، وفوتت الفرصة على العدو، الذي كان ينتظر بفارغ الصبر ما يشوه به سمعتها ، ولكن الفتاة أثبتت عفتها وصيانتها لنفسها ولشرف عائلتها .

بعد أن ضاع جزء من الأغاني الشعبية ، لم يبق منها سوى القادرة على الاستمرار ، والتي تعبر عن الجماعة أصدق تعبير، رغم اختلاف الرواة والمغنيين

في رواياتهم ، إلا أن العنصر الموسيقي ساعد على بقاء النص سليما بلا تحريف¹ ولكننا بالمقابل نؤكد ضياع بعض من النصوص ، التي تعبر كذلك عن الجماعة، ولم تصلنا لعدة أسباب أهمها ؛ أن الأغنية الشعبية غالبا ما تستمد مادتها من العادات الشعبية التي يمارسها الناس ، وبمجرد ابتعادهم عن هذا السلوك، يختفي معهم كل ما يتعلق أو يحيي هذه العادة بما فيها الأغاني الشعبية.

وختاما ، فإن الأغنية الشعبية التي يزدريها بعض الناس هي أثر من آثار الخلق والإبداع ، يتفق وميول الجماعة وتقاليدها ووجدانها².

4- أغاني استدرار المطر:

تكتسي المياه طابع القداسة عند سكان الوادي الأبيض، خاصة بعد موجة الجفاف التي تشهدها المنطقة بين الحين والآخر، حيث تشح الينابيع والوديان، التي تعد المصدر الأول للشرب وسقي البساتين، لذلك عبر الإنسان المغاربي عموما عن حاجته للماء واستدراره بطرق مختلفة، ففيما يخص المياه التي أخذت شكل منابع (عيون) وآبار ، فقد اعتبرها إنسان المنطقة سكنا للمقدس³.

تناولت الأغنية الشعبية طقوس استدرار المطر ، التي استنقت مضامينها من

أسطورة قديمة تسمى أسطورة "آنزار" وهو إله المطر، تقول الأغنية:

آنزَارُ وَرَّعٌ وَرَقَّعٌ آنزَارُ دَقَّقُ وَرَقَّعٌ

يَا رَبِّي وَارْحَمْ خَلْقَهُ يَا رَبِّي ارحم خلقك

¹ أنظر: ابراهيم زكي خورشيد . الأغنية الشعبية والمسرح الغنائي . ص 12

² أنظر: المرجع نفسه ، ص 14

³ أنظر: محمد الصغير غانم . الملاحم الباكورة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا - دار الهدى ، عين مليلة،

الجزائر، (د.تا)، ص 17

آنزَار دَقَّقْ و رَقَّعْ آنزَارُ وَّرَعْ وَاَزَقَّعْ

يا ربي ارحم خلقك يَا رَبِّي وَاَرْحَمْ خَلْقَهُ

وهو من النصوص التي تردد في طقوس استدرار المطر، التي تقام أيام الجفاف ، حيث تخاطب الأغنية إله المطر عند الأمازيغ "آنزار" ، وتطلب منه أن يجود عليهم بغيث غزير ، بينما تطلب الرحمة من المولى - عز وجل - وهذا يعني أن " آنزار " ظل مقترنا ، في أذهان العامة بالماء والغيث ، رغم إيمانهم بوحدانية الله . تعالى .

ومن حفلات طقوس استدرار المطر أيضا التي يصفها الإثنوغرافيون بـ "حفلة بوغنجة" والتي حافظت على وجودها¹ على مر العصور.، ولفظة "أغنجا" بالشاوية تعني " المغرفة " ، حيث يجتمع سكان القبيلة ويتبرعون بما لديهم ، فيجمعون ما جادت به أصحاب القطعان من بقر أوغنم ، بينما تتبرع النسوة بلوازم القدر وما شابه من ملح وزيت، وكسكس وسكر...، ويتوجهون على شكل جماعات جماعات إلى مكان مقدس ، أين تحيا الطقوس ، وتردد بداية الأغاني الشعبية الدينية ، وأغاني استدرار المطر ، كما كان سكان الوادي الأبيض ، يصنعون دمية بواسطة القصب أو غيره ، ويلبسونها على شكل فتاة ويسمونها "أغنجا" ، فيضعونها ما بين الوديان وهم يرددون:

آنغَنجَا جَارُ إِغْرَزْرَانُ المغرفة بين الوديان

يَا رَبِّي نَفُودُ أَمَانُ يا ربي إننا ضمأى

¹ أنظر : المرجع السابق ، ص 13
* سنتناول الدلالة الطقوسية في الفصل القادم.

فهم يمنحون (إله المطر) آغنجاً أو الدمية ، مقابل الماء ومن هنا كانت دمية
 "آغنجاً" بمثابة قربان يضحي به سكان الوادي من أجل الماء.
 وآخر ما عثرنا عليه ، في هذا الباب أغنية تقول:

الغَيْثُ الغَيْثُ

أَلَا

أَنْقُولُ الْقَالَ

أَنْشَأَ اللهُ

يتفاعل سكان الوادي الأبيض بلفظة "الغيث"، ويعدونها مجلبة لكل خير، ويظهر
 من جملة الطقوس التي يمارسها سكان المنطقة، لاستدرار المطر، أنها ذات دلالات
 دينية قديمة، وكذلك ذات جذور أسطورية، سنعالجها في الفصل القادم.

5- أغاني العمل :

تعتبر أغاني العمل من أقدم فروع الأغاني الشعبية على الإطلاق ، وقد جاءت
 ضرورتها من رغبة العاملين في البناء أو الحصاد أو طحن الحبوب ، لتخفيف
 عناء العامل أو إزالة الملل من الرتابة التي يعانون منها ، وقد سادت أغاني العمل في
 تلك الفترات التي كان فيها الإنتاج يعتمد على قوة الإنسان العضلية¹. فالأصل في
 أغنية العمل أنها أصوات تنبعث من ضرورة العمل بوسائل معينة يصاحبها وتكون

¹ أنظر: نمر سرحان . أغانينا الشعبية في الضفة الغربية من الأردن . ص194، ص195

جزءاً منها¹ ومما تتسم به أغاني العمل ، اللحن السريع والموسيقى التي تساعد على الترفيه عن النفس.²

ونعدد من أغاني العمل : أغاني الرحي ، أغاني الحصاد والدّرس ، وأغاني الحرث وغيرها . أما في الوادي الأبيض ، فلا يتقيد سكانه بأغاني معينة ، بل يغنون مختلفها ؛ أغاني اجتماعية ، ثورية ، دينية و لا نجد أغاني خاصة بمثل هذه المناسبات .

أ - أغاني الرحي :

لم نعثر بالوادي الأبيض على نصوص خاصة بالرّحي ، إنما ما يغنى أثناء طحن الحبوب ، هو ترجمة للحالة النفسية للمرأة ، فإن كانت حزينة اختارت أغاني حزينة ، وإن كانت فرحة ترنمت بأغاني الأفراح ، وقد ترتجل المرأة بعض الأغاني للتعبير عما لا تستطيع البوح به علناً ، وتستغل بذلك فرصة طحنها للحبوب .

أما أغلب أغاني الرّحي التي تردد فهي مختلفة المضامين ، ولا توجد بالمنطقة أغان خاصة بالرّحي.

ب - أغاني الحرث و الدّرس :

إنّ هالة التقديس التي أحاط بها الإنسان الشعبي مواسم الزراعة على اختلافها ؛ أي منذ بداية الحرث إلى جني المحصول ، مشتركة ومعروفة لدى كل الشعوب ؛ البدائية منها أو التي بلغت قدراً من التقدم التقني ، وتختلف عناصر الاحتفالات التي تتم في تلك المواسم ، فهي أحياناً تكون رقصاً وأحياناً تكون غناءً وأحياناً أخرى

¹ أنظر: أحمد رشدي صالح . الأدب الشعبي . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ، 2002م ، ص293، ص294

² أنظر: نمر سرحان . أغانينا الشعبية في الضفة الغربية من الأردن ص195

تكون مزيجاً من هذين العنصرين ، وفي بعض المرات لا نجد فيها سوى مظاهر طقوسية يمكن أن تتدرج في باب العادات والتقاليد .¹

أما سكان الوادي الأبيض فلا يتقيدون في مثل هذه المناسبات بأغاني معينة ، بل يغنون مختلفها ، وكل ما عثرنا عليه في أغاني الحرث والدرس هي أقوال مأثورة ، في قالب دعاء ؛ ففي موسم الحرث يرددون ما يلي : " بِسْمِ اللَّهِ ، بِسْمِ اللَّهِ ، يَا رَبِّي أَرْزُقْ الْعَطَّالَ وَالْبَطَّالَ وَ اللَّيِّ مَاعْنُدُوشْ ، وَاللِّي كَلَا شَيْ لِّلَّهِ وَفِي اللَّهِ . " فهم يبدؤون الحرث بالبسملة والدعاء لجميع المحتاجين والبطالين والعاطلين ، وقد وهبوا كل ما بذلوه في هذه المناسبة في سبيل الله ، اعتقاداً منهم أن ذلك يحط البركة في الغلة .

أما في الدرس فيرددون :

" الْيَوْمَ أَدْرَأْسْ ، وَ غَدَوَّةَ أَدْرَأْسْ

أَرْبَحْ ، أَرْبَحْ ، اللَّيِّ يُصَلِّي عَلَيَّ مُحَمَّدُ يَرْبَحْ

يَا حَاضِرْ ، يَا نَاطِرْ ، يَا رَبِّي حَطَّ الْبَرْكَةِ فِي هَذَا النَّادِرْ

الْيَوْمَ أَدْرَأْسْ وَ غَدَوَّةَ أَدْرَأْسْ ، سَيِّدِي عَبْدُ الْقَادِرْ عَسَّاسْ

الْقَائِلَةَ وَ الشَّهْلِي ، الْقَائِلَةَ وَ الشَّهْلِي . "

والملاحظ على مثل هذه النصوص أنها تتسم بطابع الأدعية ، حيث يصلون على الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - معتقدين أن الصلاة عليه مجلبة للريح والخير ، ومتبركين في نفس الوقت بالأولياء الصالحين ، وعلى رأسهم عبد القادر الجيلاني . كما أنهم يعتبرون من أكل شيئاً ، صدقة في سبيل الله ، لإيمان الفلاح العميق بأن الله الذي رزقه هذه النعمة قادر على أن يحرمه منها مرة أخرى ، لذلك

¹ أنظر : عبد السلام إبراهيم قاديروه . أغنيات من بلادي ، دراسة في الأغنية الشعبية . ص 220

يكون غناؤه تمجيذا لله ورسوله وأوليائه الصالحين ، لتحل البركة بالمحصول ،
ويتضاعف ما كان ينتظره من ثمار و يحفظه من كل سوء.¹ كما أنهم يدعون ليزداد
الجو حرارة ، وتهب رياح (الشهيلي) المعروفة بلهيبها الساخن ، حتى يسهل عليهم
الدرس .

¹ أنظر : عبد السلام إبراهيم قادربوه . أغنيات من بلادي ص 221 ، ص 222

المبحث الثاني : أغاني المعتقدات

تستمد أغاني المعتقدات بالوادي الأبيض مرجعياتها من مرتكزات أهمها:

- الدين الإسلامي

- العادات والتقاليد وأهم المعتقدات الشعبية المنتشرة بالمنطقة.

وأول مصدر لها من مصادر الدين الإسلامي ؛ القرآن الكريم الذي يمثل القوة المركزية الفاعلة والمؤثرة في الثقافة العربية الإسلامية ، والذي تنبثق عنه الرؤية الدينية للوجود، وهو الخطاب المتعالي بنسجه الدلالي والأسلوبي، وتركيبه اللغوي المخصوص.¹

لهذا جاءت مضامين الأغنية مستقاة من أساسيات الدين الإسلامي ، وأهم أركانه ، فسجل الشعراء مشاعرهم في المناسبات الدينية المعروفة كالحج والمولد النبوي² الشريف ، وكذلك في الصوم والصلاة والتوحيد ، ولم تطلب الأغنية الشعبية من الناس أن يكونوا أتقياء زاهدين ، بقدر ما دعت إلى الاعتدال والوسطية ، ولعل هذا نابع من فهم واقعي للنفس البشرية التي يصعب عليها أن تخضع لقيود الزهد والتعبد.³

¹ أنظر: عبد الله إبراهيم . التلقي والسياقات الثقافية . ص 91

² أنظر: أبو القاسم سعد الله، . تاريخ الجزائر الثقافي . ج02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1998م، ص 241

³ أنظر: بوعلي ياسين . الدين و العصبية في حكايات شهرزاد . المعتقد الشعبي، دراسات عربية ، مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية ، العدد ربيع ، السنة العشرون ، 1984م، ص 74.

وسعى مؤلفوا الأغنية الشعبية بالوادي الأبيض، إلى التذكير بأهم ما أكده القرآن الكريم، من أخلاقيات عامة ومعاملات حسنة ، تنظم العلاقات الاجتماعية وتضبطها ، وتسهل عملية التواصل بين الناس ، على اختلاف دياناتهم وتوجهاتهم. ومن أهم المواضيع التي استمدتها أغاني المعتقدات الدينية من القرآن الكريم: التوحيد، الصلاة، الصدقة، الحج، البر بالوالدين.

أما ثاني مصدر تعتمده أغاني المعتقدات الدينية بالوادي الأبيض ؛ فهي السنة النبوية الشريفة والتي تعد مفصلة لما ورد مجملا في القرآن الكريم ، شارحة ومزيلة كل غموض أو لبس، وهذا ما جعل "مركزية الوحي" ممثلة بهما معا (القرآن والحديث)، تستند إلى قوة خاصة ، جوهرها الرؤية الدينية للعالم منذ خلقه إلى فنائه، وضمن مسيرة العالم هذا ، رتبت الرؤية الدينية شؤون الخلق الفكرية والاجتماعية والتاريخية- فبعد موضوع التوحيد ، يأتي موضوع الصلاة على الرسول . صلى الله عليه وسلم في المرتبة الثانية ورجاء شفاعته يوم الحساب والاعتزاز به والإعلان عن حبهم له ، وكذلك الاستشهاد ببعض الأسماء التي أحبها ؛ كابنته فاطمة والإمام علي - رضي الله عنه-.

والأغنية الدينية تصور المفاهيم الشعبية لحقيقة الدين وأحكامه، والفكرة الشعبية للنبوة والنبي ، تلك الفكرة التي تعد محورا لها¹ وهذا لا يعني أن الأغنية الدينية اعتمدت القرآن الكريم والسنة النبوية فقط ، في استقاء مضامينها بل ارتبطت

¹ أنظر: هاني صبحي العمدة. الأغاني الشعبية الأردنية. رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة "نيسان (أبريل) ، 1967م ، ص 106

بشكل من أشكال الاعتقاد¹ بالدين الشعبي أيضا ، باعتبار أن الإنسان العامي ازدواجي التدين فهو رسميا وظاهريا وعصبيا مسلم أو مسيحي ، وهو في نفس الوقت باطنيا ونفسيا أرواحي وثني يؤمن بالدهر والجان والسحر والأولياء والقديسين² ومعنى هذا أن الإنسان الشعبي يخضع للدين الرسمي من جهة ، وللدين الشعبي من جهة أخرى ، ويراهما دينا واحدا ، لهذا يظن العامة أن الأخلاق مرتبطة بل تابعة للدين ، وأن حسن الأخلاق يزداد طردا مع قوة الدين ، وأن فقدان الدين يعني ضياع الأخلاق وخراب المجتمع، ورغم أن هذا الرباط ليس صحيحا، لأن لكل مجتمع أخلاقياته، ولكن هذا الربط مبرر بحكم أن العامة لا يعرفون مصدرا آخر لأخلاقهم غير الدين.³

والمعتقد الشعبي هو أول أشكال التعبيرات الجماعية عن الخبرة الدينية الفردية ، والتي خرجت من حيز الإنفعال العاطفي إلى حيز الإنفعال الذهني ، كما أنها كل ما يؤمن به الشعب، فيما يتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي، والتي تبعث من نفوس أبناء الشعب ، عن طريق الرؤية في صدور الناس إلى أشكال أخرى جديدة بفعل التراث⁴.

¹ أنظر : عبد المنعم عبد العزيز سلام . الأغنية الشعبية الدينية . قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، 1993م ، ص 23

² أنظر : بوعلي ياسين، الدين والعصبيية، ص 109

³ أنظر : المرجع نفسه ، ص 77

⁴ أنظر: سعيدة حمزاوي . صورة المرأة في المعتقدات الشعبية . مجلة الموروث الشعبي وقضايا الوطن ، الرابطة الولائية للفكر والإبداع بولاية الوادي ، محاضرات الندوة الفكرية السادسة (الملتقى الوطني للموروث الشعبي بالوادي)، 2006م ، ص 226 نقلا عن: هنية مفتاح الفكر الديني القديم، دراسة في نشأة المعتقدات الدينية، ص

إلى جانب القرآن والسنة النبوية ، يقدر سكان الوادي الأبيض الأولياء الصالحين، حيث تتفرد كل قبيلة بوليها ، ولا يتبرك أفراد قبيلة ما بولي قبيلة أخرى، كما يعرف عند سكان الوادي الأبيض تقديسهم للمشايخ (حفظة قرآن ، مدرس القرآن، إمام)، ويتبركون بهم ، ويطلبون منهم الشفاء والرزق والذرية ، ومرد هذه التناقضات الموجودة في العقيدة الشعبية إلى تعايش ثلاثة مؤشرات أرواحي (بدائي) وثني ، إسلامي¹ وهذا ما أفرز أغاني معتقدات ، متنوعة بتنوع المرجعيات الثقافية والدينية لسكان الوادي الأبيض.

تعتمد الأغنية الآتية على نص الشهادتين اللتين تميزا المسلم عن غيره ، وتتمثل في توحيد المولى عز وجل ، وأن لا يشرك به أحدا وأن محمدا رسول الله - . صلى الله عليه وسلم- وغالبا ما تردد هذه الأغنية في كل المناسبات التي يشهدها سكان الوادي الأبيض ، بأصوات النساء داخل البيوت ، وبأصوات الرحابة خارجها:

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

مُحَمَّدٌ رُسُولُ اللهِ

وهذه الأغنية تصور تصديق أول ركن من أركان الدين الإسلامي ألا وهو الشهادتان، والتصريح بذلك علنا دلالة على التقديس المطلق لهذا الدين.

وفي أغنية أخرى تقرن الأغنية الدينية بين موضوع التوحيد وذكر الأولياء الصالحين في مثل قولهم:

¹ أنظر: بوعلی یاسین . الدين والعصبية . ص 67.

الله الله
 وَالْوَّاحِدَ وَحَدَانِي
 عَبْدُ الْقَادِرِ
 لَا تَنْسَانِي

فمثلما اقتضت سيادة دعوة التوحيد الحسم في الموقف من العبادات ، اقتضت أيضا الحسم في الموقف من الموروث الشعبي المرتبط بهذه العقائد والعبادات¹. وهذا الاقتران بين التوحيد وذكر الأولياء الصالحين ، لا يعني المساواة بينهما في المنزلة ، باعتبار أن التوحيد أمر لا شك فيه ، وما يؤكد ذلك عبارة (الواحد وحداني) بمعنى (لم يكن له كفواً أحد) ، إنما ذكر الولي عبد القادر الجيلاني تبركا به ، اعترافا وإعلانا عن مكانته عند المولى -عز وجل-

وغالبا ما تستهل المناسبات الاجتماعية أو غيرها بأغنية (البسمة)

بِسْمِ اللَّهِ
 الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ
 الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ
 نَطْلُبُ رَبِّي
 آدِعَمَّرَ * الرَّهْبَانِي

وليس عبثا أن يبدأ المسلم كل شيء " بسم الله الرحمن الرحيم " ، فيصف الله بالرحمان الرحيم من بين قائمة طويلة للأسماء الحسنى ، ومما يلفت النظر أن عرب

¹ أنظر: فاروق خورشيد . الموروث الشعبي . ص 27

* أصلها : سيدي عمّار

الجنوب كانوا قبل الإسلام يسمون الله "الرحمان"¹. وظاهرة التغني " بأسماء الله الحسنى ، ظاهرة عامة في التراث الغنائي للمسلمين ، وذلك أن العوام يقولون إن أسماء الله الحسنى تسعة وتسعين اسما فقط ، لأن الاسم المائة هو الاسم الأعظم وهو سر قدسي لا يعرفه أحد وأنهم يقسمون به في قولهم باسم الله الرحمان الرحيم ، فالله الرحمان الرحيم هو اسم مقدس يصدرونه في أعمالهم ، ويبدأون به كل فعل ، ويقسمون به أمام كل خطر"² مؤمنين أن البدء بالبسملة تطرح البركة.

وثاني ركن تضمنته الأغنية الشعبية " الحث على الصلاة" في قولهم:

نُوضُ أَنْتَقَعْدُ

لِيَمَامَ يُعَيِّطُ أَغْلِيكَ

نُوضُ أَنْتَصَلِي حَمْسَ أَوْقَاتُ

أَوْصَدَّقْ يَا بُونَادَمَ لِمَفْرَطُ

تدعو الأغنية إلى ضرورة الالتزام بفرض الصلاة ، عند سماع الأذان بقيمة خمس صلوات في اليوم ، كما أوجبت الأغنية على الفرد الصدقة ، مستعينة بأسلوب التذكير والترغيب لبلوغ هدف التأثير.

وبينما عالجت هذه الأغنية موضوع الصلاة إجمالاً ، أوردتها الأغنية الموالية

تفصيلاً.

يَا بُونَادَمَ تُوْبُ وَصَلِي

وَصَلِي حَمْسَ أَوْقَاتُ

¹ أنظر: بوعلي ياسين . الدين والعصية . ص 76

² فاروق خورشيد . الموروث الشعبي . ص 52

صَلِيَتُ الظُّهْرِ
 فِي وَقْتُو يَحْضَرُ
 صَلِيَتُ العَصْرِ
 وَالشَّمْسُ تُبَانُ
 صليت المغرب
 ترتد وتنام
 صليت الصبح
 أمشعشع لنوار
 صليت الفجر
 مفتاح البيان.

وقد فصلّ النص السابق في عدد الصلوات ومواقيتها: الظهر، العصر، المغرب ، الصبح والفجر، ولم يرد ذكر صلاة العشاء ، فربما يكون المقطع الخاص بها قد سقط ، نظرا للتداول الشفوي.

ويتضح جليا كيف استعان مؤلفو الأغنية بهذا الشكل ، للتعريف بمبادئ الدين الإسلامي وأهم أركانه ، ونقصد هنا الأركان الخمسة للإسلام ، وقد ثبت عن الحسن البصري أنه قال: " نعم العون الغناء على طاعة الله ، يصل الرجل به رحمه ويواسي به صديقه"¹ ومعنى هذا أنه لا حرج في الاستعانة بالغناء من أجل الحث على طاعة الله - عز وجل - لما في الغناء من سحر وقوة في التأثير على المستمعين .

¹ أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي . العقد الفريد . شرحه و ضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه : أحمد أمين ، إبراهيم الأبياري ، عبد السلام هارون ، ج6 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1983م، ص10.

وهكذا كان فقيه المدينة مالك بن أنس يتغنى ، وكان قاضي المدينة ابن حنطبة يتغنى ، وكان والي المدينة عمر بن عبد العزيز يتغنى¹ ، كما قرنت الأغنية بين الموت أو الفناء وبين الصلاة قبل فوات الأوان :

يَابُونَادَمْ تُوبٌ وَصَلِّي

رَاكَ تَنْدَمْ

رَاكَ مُسَافِرٌ

سَفْرَهُ بَعِيدَةً

لَا تُؤَلِّي

وقد شبه الموت بالسفر البعيد ولكن دون عودة ، كما دعت الأغنية إلى التوبة من كل الآثام ، والسعي لاستدراك ما يمكن استدراكه.

أما النزعة الصوفية فيقول عنها ابن خلدون: " أصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة و مال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة"² وقد ظهرت هذه النزعة في العالم العربي منذ القرن الثاني للهجرة ، فانعكست في كتابات الشعراء والكتاب ، بما فيهم الشعراء الشعبيون الذين هاموا في التعبير عن الذات الإلهية وحتمية الزوال والفناء:

¹ أنظر: شوقي ضيف . الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية . ط2 ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1967م ، ص 68.

² عبد الرحمن بن محمد بن خلدون . مقدمة ابن خلدون . دراسة وتحقيق وتعليق : علي عبد الواحد وافي، ج3، ط4، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع ، أكتوبر 2006م ، ص 989

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
 أَنْوَصِيكُمْ يَا أَخَوَانِي
 قُومُوا لِلصَّلَاةِ
 زَهُو الدُّنْيَا رَاهُو فَانِي

ويتضح أن عبادة الإله الواحد ، قد حلت محل كل المتبقيات الأسطورية والمعبدية القديمة¹. ويغتنم المغني الفرصة لتوصية إخوانه بالصلاة ، مذكرا إياهم بفناء الدنيا - مهما طال -

وربما تعود أسباب الاهتمام بالصلاة في أوساط الشعبين إلى إيمانهم أولا بأنها ركن من أركان الإسلام ، و ثانيا أنها سبب من أسباب الرزق ، لهذا يشيع في الفكر الشعبي فتح الأبواب باكرا - مع صلاة الفجر - معتقدين أن قسّام الأرزاق يمر كل صباح ، ومن وجد بابه موصدا لم ينل شيئا.

وتأكيدا لحقيقة الفناء، يرمز للإنسان في عنفوان شبابه بالنجم المضيء ، ولكن ما يلبث العمر يمضي بسرعة مثلما يأفل النجم بسرعة.

يَانَجْمَةَ ضَاوِيَةٍ
 مَا بَيْنَ نُجُومٍ
 يَادُنْيَا فَانِيَّةٍ
 لَا حَالَ يَدُومٍ

¹ أنظر: فاروق خورشيد . الموروث الشعبي . ص 27.

كما قامت الأغنية الدينية على تقديس القرآن الكريم والدعوة لحفظه وترتيبه:

فَطِيْمَةٌ يَا فَطِيْمَةٌ	فَطِيْمَةٌ يَا فَطِيْمَةٌ
مَاذَا يَرِيْدُ أَخُوْكَ ؟	مَاذَا يَخْشَى أُوْمَامَ
بَاتَ سَاهِرًا	يُنْسَى ذَا زَهْرَانِ
مَنْ أَجَلَ الْقُرْآنَ	مَنْ جَالَ الْقُرْآنَ

وكذلك النص الموالي يقدر الدار التي يكثر فيها قراءة القرآن:

هَآذِ الدَّارِ يَا مَحَلَّهَا
 مُوَلَّاهَا حَبِيْبُ اللهِ
 عَمَّرَهَا لَوْ يَا رَبِّي
 بِالْقُرْآنِ وَذَكَرُ اللهُ

وفي نص آخر يقول:

وَحْشُ الْغِمَامِ
 يَا طَلْبَةَ وَحْشِ الْغِمَامَا
 حَافِظِيْنَ لِلْوَاخِ
 يَا طَلْبَةَ رَاكُمُ عَلَمَا

واحتفاء بحفظة القرآن وافتخارا بهم ، تغنى هذه الأغاني التي تصفهم (الطلبة)

بالعلماء الذين حفظوا الألواح القرآنية وهو تحفيز ضمني للأطفال للالتحاق بالكتاب.

وحظي موضوع طاعة الوالدين ، باهتمام مؤلفي الأغنية ، فنظموا النص

الموالي:

يَابُونَادَمَ تُوبٌ وَصَلِي

مَا تَعَصِيْشِ الْوَالِدِيْنَ

الدُّنْيَا تَبْقَى لِرَبِّي

وَالْجَنَّةُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ

حيث يقرن النص بين التوبة والصلاة وطاعة الوالدين ، مادام الله هو وارث هذه الدنيا وما فيها ، وتبقى الجنة من نصيب المؤمنين الذين اتقوا الله .

كما أسهمت الأغنية الدينية في تقويم أخلاق العامة ، ومحاربة الصفات الذميمة التي تؤدي إلى الفتن وغرس الأحقاد كالنميمة.

بَرَكَاتُ يَالْسَانِي

بَرَكَاتُ مَنْ قَالَ وَقَالَ

تَعْيَا وَتُرْفُدُ ظَلْمَةَ

لَا سَمْعَ يَقْدِي ، لَا ضَوْ يَبَانُ

ويخاطب "اللسان" كأنه مسؤول عن أفعاله وعن كلامه وعن حجم المصائب التي يتسبب فيها ، مذكرا إياه بالموت والفناء وظلمة القبر .

كما اهتمت الأغنية الدينية بالحج ، لأنه ركن من أركان الإسلام ، فراحت تصور شغوف الناس وولوعهم بزيارة البقاع المقدسة ، وتقديسهم للكعبة الشريفة، بعد أن تحولت "بكل رمزها القديم إلى رمز إسلامي جديد ، يحيل مكانتها القديمة إلى مكانة جديدة ، تستمد معناها وقداستها من الدين الجديد الذي أحدث حولها ، إحلالا

قوليا جديدا ، يزيح كل ما حولها من معطيات أسطورية قديمة ، ليبقى هذا الإحلال
القولوي.¹، وهذه الأغنية تصور لنا مكة المكرمة ، في حلة جديدة :

يَا مَكَّةَ الْحَضْرَا

مَا لْبَحُورِ ثَبَانُ

يَا كَسْوَةَ جَدِيدَةَ

جَابُوهَا لَحْوَانُ

ويستبشرون بالخير الكثير من زيارة البقاع المقدسة في قولهم :

يَا بَشْرُوا بِالْخَيْرِ

يَا مَكَّةَ وَتُرُورُوا

أَيَّغْنِيكَ اللهُ

أُمَحَمَّدُ سَيِّدِي

"والتشوق للبقاع المقدسة ووصفها والحنين إليها ومدح الرسول صلى الله عليه
وسلم ، أغراض قديمة عند الجزائريين"² لهذا تعدد هذا النوع من الأغاني بالوادي
الأبيض كقولهم :

يَا مَكَّةَ الرِّيَّانِيَّةَ

قَارَنَ يُودَانَ إِوَاهَ

وَاللهَ لَا لُومَ أَعْلِيَا

¹ فاروق خورشيد . الموروث الشعبي . ص 28

² أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 02 ، ص 246

كما تغنى سكان الوادي الأبيض بجبل عرفة :

يا رهواجا	يا رَهْوَاجًا *
انتظري انتظري	رَجَا رَجَا
ننتظر بعضنا البعض	أَنْمَرَجَا
ننتظر بعضنا البعض	أَنْمَرَجَا
لنلتقي في جبل عرفة	المُلاقاةُ جِبِلْ عَرَفَةَ (أو)
	أَنْمَسَلَقًا ذِ جِبِلْ عَرَفَةَ

والوقوف بجبل عرفة شعيرة من شعائر الحج ، ونعثر على روايتين لهذه الأغنية بالوادي الأبيض ، بتغيير بسيط في المقطع الأخير بدل : الملاقاة جبل عرفة يقولون :
أنمسقا ذ . جبل عرفة.

إلى جانب المواضيع السابقة ، يحظى موضوع مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في الأغنية الدينية بالوادي الأبيض بنصيب وافر ، إعلانا لحبهم له ، وتصديقا للرسالة السماوية ، فيكثرون من الصلاة عليه والتشوق لزيارة قبره ، ومن ثم خلع أوصاف شتى على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وإنعادت أصحابه الأجلاء بنعوت مختلفة ، خاصة منهم الأبطال الذين قادوا الغزوات والفتوحات الإسلامية، ومن بين هذه الشخصيات شخصية الإمام علي ، التي نجدها تذكر في النصوص الشعرية الشعبية.¹

* اسم علم

¹ أنظر : العربي دحو . الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية . ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ص

ومن الأغاني التي تدعو إلى الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم :

يَا الصَّلَاةَ أَعْلَى النَّبِيِّ

يَا الصَّلَاةَ أَعْلَى النَّبِيِّ

صَلِّي أَعْلَيْهِ وَسَلِّمًا

نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا

وفي نفس السياق أغنية أخرى تقول :

صَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ

وَالصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ

صَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ

وَالنَّبِيَّ مُحَمَّدًا

ويعد اسم محمد من أعز الأسماء وأشرفها ، لهذا تتغنى به الأغنية التالية:

الاسمَ العَالِي

وَالنُّورَ أَعْلِيه

سَيِّدِي مُحَمَّدٌ

صَلُّوا أَعْلِيه

ويعلنون في أغنية أخرى عن مكانة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في

قلوبهم ، فيصفونه بالعزیز عليهم والمثبت لعقولهم ، في أوقات الغضب والضيق.

مُحَمَّدٌ يَا مُحَمَّدٌ

يَا الْعَزِيزُ أَعْلَيْنَا

كِي نَنْفَكِرَ مُحَمَّدٌ

يَرْجَعُ عَقْلِي لِي

ومن الشائع في أوساط الشعب الجزائري عموماً، الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم ، لتهديئة الأعصاب وضبطها ، كذلك أثناء إصلاح ذات البين ، وهذا ما تلمح إليه الأغنية من خلال المقطع الأخير .

أما عن الأغاني الدينية التي تتضمن مناسبة ميلاد الرسول . صلى الله عليه وسلم . أو ذكرى مولده ، فعثرنا على الأغنية الموالية التي تصور فرح القلوب بهذه المناسبة :

أَفْرَحُ يَا قَلْبِي

وَاللَّيْلَةَ زَادَ النَّبِي

أَفْرَحُ يَا قَلْبِي

وَاللَّيْلَةَ زَادَ النَّبِي

وهي من الأغاني المحبوبة بين أوساط سكان الوادي الأبيض ، والتي تتردد في مختلف المناسبات الاجتماعية.

وتتوق قلوب المحبين لزيارة قبره - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة المنورة

الله الله يَا مَرِيَا*

حَمْرًا وَجَنَاحَهَا مَرْقُومٌ

نَرْكَبُ نُرُوزَ الْمَدِينَةِ

أَنْزُوحَ لِقَبْرِ الرَّسُولِ

* مرياً: اسم علم مؤنث

واستعطاف النبي -صلى الله عليه وسلم- والتوسل به إلى الله أسلوب شائع في جميع الأغاني الدينية وهو اعتقاد يتناسب مع مفهوم الشعب للنبي على اعتبار أنه سيشفع للناس جميعاً¹ لأنه حبيب الله :

رَسُولُ اللَّهِ

أَشْفَعُ فِينَا

يَوْمَ الْمَحْشَرِ

حَبِيبُ اللَّهِ

قَلْبِي بِيكَ يَتَنَوَّرُ

وفي أحايين أخرى تخاطب الأغنية ابنة الرسول -صلى الله عليه وسلم- فاطمة لتتوسط لهم ولتوصيته خيراً بهم ، حتى يشفع لهم عند المولى عز وجل:

يَا لَآ لَآ فَطِيمَةَ

بَنَتْ النَّبِيَّ

بَاهِيَةَ وَ زَيْنَةَ

وَصَيَّ بَابَاكَ أَعْلَيْنَا

كما تؤكد ذات المعنى الأغنية الموالية أي رجاء شفاعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لذلك يكثر الصلاة عليه.

يَا لَخَوَانَ رَاكُمُ جِيئُو

مَرَحَبًا وَاشْ بُغِيئُو

أَبْغِينَا أَصْلَاةَ مُحَمَّدٍ

¹ أنظر: هاني صبحي العمدة . الأغاني الشعبية الأردنية . ص 107

تَنَفَعْنَا نَهَارَ نُمُوثُوا

ويرد اسم محمد صلى الله عليه وسلم مقترنا باسم أحد الشخصيات البطولية

وهي شخصية علي كرم الله وجهه في إحدى الأغاني :

أَصْلَاةَ أَعْلَى النَّبِيِّ

أَصْلَاةَ أَعْلَى النَّبِيِّ

مُحَمَّدَ وَاعْلِي

إشارة إلى المذهب الشيعي الذي انتقل إلى المغرب مع الفاطميين ، حيث تأثر المغاربة به وبفكرة المهدي التي بنيت عليها الدعوة الفاطمية في المغرب ، وكذلك الدعوة الموحدية¹ وقد تسرب إلى الجزائر عن طريق الحج والتعاملات التجارية آنذاك. ويظهر جليا أن المؤلف الأول لهذه الأغنية هو الذي عمد إلى الربط بين الرسول -صلى الله عليه وسلم- وعلي -رضي الله عنه- لغاية شخصية وربما لغاية عقائدية أو غاية إيقاعية .

كما تحفل الأغنية الدينية بالوادي الأبيض بذكر الأولياء الصالحين ، هذه الشخصيات المقدسة والفذة ، بمنظور العقلية الشعبية التي يمكنها أن تنفع ببركتها كل سائل ، سواء حية أم ميتة وظلت تحتل هذه المكانة عبر العصور ، في جميع أنحاء البلدان العربية :

¹ أنظر: فيلالي مختار الطاهر -نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني- ط1،

مَرْوَانَةُ يَا مَرْوَانَةَ
مَرْوَانَةُ جَيْتِ أَنْزُورِ
سَيِّدِي عَبْدُ الرَّحْمَانِ
قَلْبِي مَضْرُورًا

وتشير الأغنية إلى الطريقة الرحمانية (سيدي عبد الرحمان) التي أسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمان القشتولي الجرجري الأزهري ، من قبيلة " آيت إسماعيل " من قبائل جرجرة و دفن بمسقط رأسه ، إلا أن الأتراك استطاعوا نقل جثمانه إلى العاصمة ، لمراقبة أتباعه الذين شكلوا خطرا عليهم ، بينما أكد سكان قرية آيت إسماعيل أن الجثة لم تفارق قبرها الأصلي ، فاعتقدوا أن جثة شيخهم إزدوجت ، فلقب بن عبد الرحمان منذ ذلك الوقت ب (بوقبرين)¹ والأرجح أن هذه الطريقة، انتقلت إلى الأوراس عن طريق التعاملات التجارية التي جمعت بين الشاوية والقبائل.

كما تذكر أغنية أخرى ، الولي الصالح عبد القادر الجيلاني ، صاحب الطريقة القادرية نسبة إلى مؤسسها ، وقد انتشرت هذه الطريقة في المغرب العربي عن طريقين هما: مصر والأندلس.²

وقد عرفت الجزائر هذه الطرق الصوفية ، منذ بداية القرن السادس عشر ميلادي ، ثم أخذت تنمو وتتسع حتى انتشرت على نطاق واسع ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي والربع الأول من القرن التاسع عشر ميلادي³

¹ أنظر : المرجع السابق ، ص 40-44

² أنظر : المرجع نفسه ، ص 35-37

³ أنظر : المرجع نفسه، ص 34

والواضح أن الطريقة القادرية، قد انتقلت كذلك عن طريق الحج، حيث احتك الحجاج المغاربة بالمشاركة ، فأخذوا عنهم مبادئ هذه الطريقة و نشروها في الجزائر، ولما ولع الناس بمشايق هذه الطرق الصوفية، نظموا شعرا في مختلف الأغراض، بما فيها الشعر الصوفي، الذي يتضمن التوجه إلى الله وقت الشدة ومدح وثناء الأولياء الصالحين.¹

الله الله

الواحدُ وَحْدَانِي

عَبْدُ الْقَادِرُ

لَا تُنْسَانِي

والأغنية الدينية، حسب (كراب) رغم أنها تفصح من ناحية الشكل والمضمون على أنها من تأليف ذوي ثقافة دينية ، تختلف درجتها عن ثقافة المجتمع الشعبي إلا أن ذلك لا يمنع اعتبار هذه الأغاني أغاني شعبية حقيقية ، يرتبط مضمونها ، بمعتقدات الناس ويرجح الباحث أن تكون قد نشأت بين أوساط المتدينين وأصحاب الطرق الصوفية² ونحن نؤيد هذا الرأي لأن الأغنية تعكس اهتمامات هذه الشريحة التي تدعو إلى ازدياء الدنيا والانصراف عنها، والإكثار من الموت وتصويره في صور شتى.³ وقد أعجب الناس بهذا النوع من الغناء ، لأنه يتصل في جوهره بمعتقداتهم الدينية فرددوه بكل حب.

¹ أنظر: أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي . ج2، ص 245

² أنظر: أحمد علي مرسي . المأثورات الشعبية الأدبية . دراسة ميدانية في إقليم الفيوم ، رسالة دكتورا في الأدب الشعبي ، قسم اللغة العربية و آدابها ، كلية الأدب، جامعة القاهرة، يونيو 1969، ص 125- ص127

³ أنظر: فوزي عيسى . في الأدب الأندلسي . دار المعرفة الجامعية 2004م، ص 89

والأغنية الدينية بالوادي الأبيض ، توظف لغة عربية قريبة جدا من الفصحى لأنها أصلا مستمدة من القرآن ومعانيه ، كما أنه يفتح بها كل المناسبات الاجتماعية التي تشهدها المنطقة خاصة منها التي تعلق بموضوعي التوحيد والصلاة على الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

المبحث الثالث: أغاني المضمون الوطني

تتخذ منطقة الوادي الأبيض ، بزخم هائل من النصوص الشفوية الثورية، التي مازالت تلقى العناية من المغنين المحترفين أو غيرهم ، ذلك أنها من النصوص الأكثر ترديدا ، مقارنة بالأنواع الأخرى ، وهي ترصد بعناية فائقة الوضع المزري للشعب الجزائري إبان فترة الاحتلال إلى غاية فترة الاستقلال وما بعدها، كاشفة عن حقيقة الاستعمار ونواياه ، الذي بذل كل ما لديه، ليظفر بالجزائر شعبا وأرضا، ولكنه استفاق على كابوس مرعب ، اسمه " ثورة التحرير الكبرى" التي غيرت الواقع وقلبت موازين القوى.

ولما كانت الثورة الحدث التاريخي المشهود ، تحررت العقول والنفوس- في هذه الفترة بالذات- وراحت القرائح تجود بما لديها من إبداع ، بقصائد وأغان شعبية خالدة ، سجلت مسيرة شعب بأكمله ، وهو يصارع من أجل البقاء والحرية، مقدما تضحيات جسام كتبت اسم "الجزائر" بماء من ذهب ، في سجل التاريخ الثوري العالمي.

لهذا صنفنا النصوص الغنائية التي بين أيدينا، إنطلاقا من هذا الحدث

التاريخي، فأسفر التصنيف بذلك عن ثلاثة أقسام:

أ- أغاني ما قبل الثورة التحريرية: وهي قليلة جدا.

ب- أغاني الثورة التحريرية: وهي كثيرة جدا

ج- أغاني الاستقلال: وهي محدودة.

المطلب الأول : أغاني ما قبل الثورة التحريرية:

إنّ هذا النوع من الأغاني قليل مقارنة بالكلم الكبير الذي تحتفظ به الذاكرة الشعبية ، والمتعلق بمختلف التفاصيل التي مرت بها الثورة المجيدة ، وقد يعود سبب ذلك إلى الحالة المزرية والبائسة التي كان يعيشها الشعب الجزائري منذ الاحتلال إلى يوم الثورة ، إضافة إلى حالة اليأس والإحباط التي قيدت النفوس، وجمدت العقول ، ورغم هذا ظل محافظا على أغلب النصوص الغنائية ذات الطابع الاجتماعي وكذا الديني التي كانت تردد آنذاك؛ لأنها نابعة من أصالة سكان الأوراس من عاداتهم ومعتقداتهم التي ظلت حية على مر العصور.

وهذا يعكس طبيعة الاهتمامات التي كانت سائدة في فترة ما قبل الثورة التحريرية، والتي انحصرت في الجانب الاجتماعي، وبالمقابل لا يعني هذا انعدام النصوص التي رصدت أحداثا شهدتها المنطقة في تلك الفترة، ومن بينها تجنيد الشباب الجزائري في صفوف قوات الاحتلال الفرنسي في الحرب العالمية الأولى والثانية.

يعطينا النص صورة كاملة وواضحة ، عن تجنيد الشباب الأوراسي في صفوف الجيش الفرنسي ، ونقلهم بواسطة القطارات السريعة ، وما تولد من مقت وسخط على فرنسا ، حيث قوبل التجنيد بالرفض ، والخروج عن سلطة فرنسا ، وذكرها التاريخ بفترة الخارجين عن القانون أو ما أطلق عليهم لصوص الشرف ، وهذا خلال الحرب العالمية الأولى والثانية).

ويحدد النص حتى وقت التجنيد أو النقل الذي تم مساء ، وقد أعلن المبدع الشعبي سخطه على فرنسا ، وهذا يوحي بأن المنطقة في تلك الفترة شهدت مواقف

معادية للاستعمار، ولكنها ظلت محاولات فردية ، لم ترق إلى حد التنظيم والنجاح ، فاستمر هذا العصيان إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية وكان الكثير من هؤلاء الشباب ، النواة الأولى لجيش التحرير الوطني .

المَشِينَةُ ثَاعَجَلْتُ	القطار السريع
إِيدْرِيِينُ ثَاعَشُوِيْتُ	الذي انطلق مساء
فُرُنْسَا ثَاعُرَّيْتُ	فرنسا المخادعة
يُوِينُ أَدْرَارِي	أخذت الشباب
حَدُّ -لَا- ثَجِيْتُ	ولم تترك أحدا

وفي موضوع التجنيد دائما ، نجد نصا آخر يقول

هَاطِيَارْتُ لَأَلْمَانُ	طائرة الألمان
مَاشِينَا لُمَارِيكَانُ	قطارات الأمريكان
جَمِيلَةَ سَالْفُ ذَابَرَكَا نُ	جميلة ذات الشعر الأسود
حَادَّرُ أُوَمَامُ ذَامَرْيَانُ	حافظي على أخيك الصغير

حيث يحذر النص إحدى الفتيات (جميلة) ضمنا ، من ضرورة مراقبة أخيها والحفاظ عليه ، حتى لا تتمكن فرنسا من أخذه وتجنيدته بالقوة ، مثلما حدث مع شباب المنطقة ، كما تشير الأغنية إلى قطارات أمريكا* ، وطائرات ألمانيا ، دلالة على الحرب العالمية الثانية.

* كان دخول الأمريكيون إلى الجزائر في 8 نوفمبر 1942م

ومما عرف عن الأوراسي أنه يعشق عيشة الحرية ، ويرفض الخضوع لأي كان ، مما هيا لظهور مقاومين -في فترة ما قبل الثورة- أو "الخارجين عن القانون" أو "الصوص الشرف" مثلما سمتهم فرنسا.

هؤلاء المتمردون الذين سعوا لمحاربة فرنسا، لكن محاولاتهم ظلت فردية ، لم يكتب لها الصمود طويلا أمام قوات الاحتلال ، إلا أنها ظلت حاضرة في الذاكرة الشعبية، فغنت لها الحناجر وعاشت تجابه قساوة السنون لتصل إلينا ، حتى وإن كانت نصوصا ناقصة إلا أنها حية ، ومن هذه الشخصيات المقاومة آنذاك "مسعود أوزلماض" الذي عرف بتمرده على السلطات الفرنسية ، ورفضه الانصياع لأوامرها، بما فيها التجنيد في صفوف الجيش الفرنسي.

" مسعود أوزلماض" البطل الأسطورة الذي دوخ قوات الاحتلال وقاومهم إلى آخر نفس من حياته ، غير آبه بالموت ؛ يصفه النص حاملا لبندقيته ، منتعلا بلغته، واقفا كجلمود صخر، تراه في كل جهة من الجبل ، إحياء بخفة حركته ، وبيده استدعاء الخدمة العسكرية (ثَاوْرُقَيْبُثُ نُ الْمَاصَا) ، إلا أنه قرر التمرد على فرنسا وعلى قوانينها . وفي المقطع الموالي ، يستسلم في الأخير لحكمة وقدر المولى -عز وجل- الذي جمع بينه و بين حبيبته ، ثم فرّق بينهما من جديد ، شاكيا لوعة الفراق ومرارته ، لأنه فراق المضطر وليس المخير، داعيا لحبيبته التي يسميها (همامة) بالصبر.

وختاماً يصور بداية رحلته الطويلة ، انطلاقاً من منعة إلى شير ، ليعود مرة

أخرى للحديث عن صعوبة فراق صاحبة الشعر الأشقر. تقول الأغنية:

البندقية ذات المسمار	الفُوشِي أُونَسَمَار
النعل في القدم	البَلْعُثْ هَاتْ أَفْطَارْ
هذا بن زلماط	وَاقْبِيدْ أَوْقْزَلْمَاضْ *
منتقلا ما بين الوريوالمضفة المقابلة	جَارْ أَوْعَلَّا دُوْ جَمَّاضْ
الورقة الشفافة	ثَاوْرَقِيْثْ نْ الْمَاصَا
التي أتت من فرنسا	إِيدْيُوسِيْنْ سِ - فُرْنَسَا
أنت لم تجيبي	شَمْ أُوْدْ هُوْجِيْبِيدْ
و نحن لم نقل لماذا	نَشْنِيْ أُونِّيْ مَاتَا
الله عظيم	رَبِّيْ ذَا حَلَّاقْ
يخلق و يفرق	إِخْلُقْ إِنْفَرَّاقْ
الدقلة في الصناديق	دَقْلَة دَقْ - صَنْدَاقْ
كم هو صعب الفراق	وَ ذِ صَعْبْ لَفْرَاقْ
يا جوجا ما بي	أَجُوجَا ** مَالِي
مع السلامة	وَبَقَاؤْ بَسْلَامَا
يا عرب مروانة	يَا عَرَبْ مَرْوَانَة
نحن رحلنا	وَاحْنَا صَدِيْنَا

* أَوْقْزَلْمَاضْ: المقصود به، "مسعود أوز لماض" وهو أحد الخارجين على القانون" أو "لصوص الشرف"، الذي تمرد على فرنسا ، وظل مقاوما ما بين (1917 م - 1921 م) متخذاً من الجبال مأوى له.

** جوجا : هناك رواية شفوية تقول أن جوجا هي امرأة فرنسية ، تدعى Jojette ، كانت تقيم في منعة ، و كان عيسى الجرמוني يتغنى بها . و الأرجح أن كلمة (واجوجا) هي صيغة من صيغ التحبيب و التدليل بمعنى (عزيزتي) .

إلى بلاد بعيدة	لِبَلَادٍ بَعِيدَةٍ
نحن مساكين	انْشَنِي ذِي مَغْبَانٍ
في بلاد الناس	ذِي ثُمُورًا أَنِّيُودَانَ
صبرا يا همامة	اصْبِرْ اهِمَامُو
هذا ما أصابني	مَاتًا إِبِيلَانَ
هيا نمشي	أَكْرَدُ أَنُوقِيرَ
كم هي بعيدة الطريق	وَيَبْعَدُ وَابْرِيذُ
ما بين منعة و شير	جَارَ مَنَعَةٍ ذُو شِيرَ
أطلت من النافذة	تَسَجَبَادُ فَطَاقُ
ذات الشعر الأشقر	سَالَفُ دَا شُورَاقُ
كم هو صعب الفراق	وَقْ صَعَبَ لَفَرَاقُ
يا جوجا يا كنزي	وَأُجُوجَا وَآمَالِي

للأسف ، هذا ما عثرنا عليه من هذه الأغنية الرائعة ، التي تعد أصلا مرثية طويلة ضاعت مقاطعها ، نظرا للتداول الشفوي ، ويقال إن من نظم هذا النص هي عشيقة " مسعود أوزلماض " التي تدعى "همامة" ، وهي امرأة من وادي عبدي ، فأمر هذا البطل المغني " عيسى الجرموني " بتلحينه وغناؤه .

وقد عثرنا على النص الأصلي كاملا مترجما إلى اللغة الفرنسية يقول:

Sur les monts de zallatou

Mon bien – aimé

Tient ses ennemis à genoux

A la main droite un 86 chargé

En bandoulière un fusil à broche
 Au coté gauche
Des munitions plein la sacoche
Qu'il est courageux mon bien – aimé
 Massaoud Ben Zelmat
 Il est chaussé
De lanières à semelles plates
Cloutées de chevilles de fer
 De jour comme de nuit
Tout le pays est à lui
Du mellagou à l'Ahmaar Khaddou
 Il est le lion dans son domaine
Son corps dur est bâti
 à la romaine
Ses yeux ont un regard
Qui me pénètre droit au cœur
Sa bouche charmente
Me murmure : Ma sœur...
Sa joue a le rose de la grenade
Son contacte n'est que douceur
Ses bras vigoureux
Soutiennent ma jeune taille ...
 Il est mon amant
 Et je suis sa belle
Son cœur est plein de bonté
Ses actes ne sont en réalité
Que gestes charitables
 Je le vois d'ici
 Les pauvres lui disent merci

IL dépouille le riche
 Au cœur trop sec
 Pour nourrir les meskines
 Toujours en peine

أما الجزء الثاني من الأغنية فينتهي ب:

N'aie pas peur
 Ô mon bonheur
 Tes ennemis ne les Crains pas
 Car Allah guide les pas
 Aie confiance en dieu
 Qui t'observe des cieux

أما آخر جزء من الأغنية :

Dors ton dernier sommeil, Ô mon amour
 Dors pour toujours
 Je mets un sceau sur mon cœur
 Un sceau d'amères larmes
 Adieu bonheur
 Adieu charmes¹

ونجد في هذا النص المترجم عن النص الأصلي ، مقاطع غنائية غائبة في النص الأول (الأمازيغي) ، حيث يكشف عن حقيقة هذه الشخصية البطولية "مسعود أوزلماض"، الذي كان نصير المساكين ، يأخذ من الأغنياء ليوزع على الفقراء ، وهو الذي أركع أعداءه بقوته .

والأغنية على العموم تبرز هيئة هذا البطل ونوع سلاحه ولباسه ، ثم يقظته ليل نهار أو بالأحرى فطنته ، فهو الذي يملك البلاد كلها من "ملاقو" إلى "أحمر خدو"، إنه بطل المنطقة وفارسها ، صحيح الجسم ، معافى ، له نظرة ثاقبة ، وهمسات رقيقة ، وخدود حمراء كحبات الرمان ، مثلما تصفه "همامة" التي تعترف بأنه عشيقها ، وتصف لمساته الرقيقة المفعمة بالحنان ، وقلبه الطيب وأفعاله الحميدة، خاصة نصرته الفقراء والمساكين.

وفي آخر مقطع تراثي -الحبيبية- البطل الأسطورة "مسعود أوزلماض" وتعزي نفسها لفقدانها من تحب إلى الأبد.

وهكذا مثل النص الغنائي مختلف الصراعات التي عرفتها منطقة الأوراس وخاصة التي استهدفت الجزائر وطنا وشعبا ، بما فيها المقاومات التي سبقت الثورة التحريرية ، بما فيها المقاومة الشعبية¹ أو المقاومات الفردية التي نبعت وبزغت عند أشخاص لا يهابون الموتى ، وتصدوا لجبروت فرنسا دون مناصر أو مساند لهم.وقد أعادت إنجازات "مسعود بن زلماض" للشاوية عزتهم المسلوبة في وقت لم تشهد فيه الجزائر حينذاك بأسرها شخصية صامدة مثله ، لهذا ظلت نساء الأوراس لسنين عديدة ترندن أغنية " مسعود أوزلماض"²

أدرك الشعب الجزائري أن العمل الفردي أو بالأحرى المقاومات الفردية والشعبية ينقصها التنظيم ، مما وجه العمل الثوري وجهة جديدة ، وحدث من خلاله جهود الثوار وأهدافهم ، ومما حفظته الذاكرة الشعبية ، أغنية تتحدث عن الوصية

¹ أنظر: العربي دحو - مقاربات في الشعر الشعبي. ص10 ، ص11

² أنظر: Jean MORIZOT - L'Aurés ou le mythe de la montagne rebelle - P171

التي بعثها رئيس حزب الشعب (الحاج مصالي) ، لممثل هذا الحزب بمدينة آريس (بن بولعيد) ، فحواها حماية الوطن والمقصود تحريره من أعدائه.

أَدْلِيْقِي يَا دِلِيْقِي

يَا بَرِيْزَادَانِ ذِي - أُوْبُوْلَعِيْدَا *

أُوَيْسَلَمَّ أَغْلِيْكُمُ الْحَاجُّ مَصَالِي **

قَالَلْكُمُ أَتَهْلَاؤُ فِي الْوَطَنِ

وبمثل هذه النصوص ، يمكن أن نؤكد أن النص الشفوي ، قد واكب مختلف الأحداث التاريخية التي شهدتها الجزائر، إبان الاحتلال الفرنسي ، وعبر عنها أحسن تعبير، ونحن في هذا المقام لا نسعى لتأريخ الأحداث بهذه النصوص ، بقدر ما نسعى لإثبات مرونة النص الغنائي ، واستيعابه لكل ما يهم الشعب عبر العصور، فما إن ظهرت المقاومة سواء الفردية أو الشعبية ، كرفض للكيان الاستعماري والمتواطئين معه ، حتى احتل الأدب الشعبي والأغنية خاصة مركزهما في الصراع، وبذلك استطاعت الأغنية أن تكون أغنية ملحمة ، تحقق التواصل بالدم مع باقي المضطهدين .¹

المطلب الثاني: أغاني الثورة التحريرية

إنه الألم الذي يشدو، ليدون ألقانا شجية ، استمدت من أنين شعب غاضب، ثائر ، ضاقت به السبل ، فأيقن أنه لا مفر من قدر محتوم ، إنها "الثورة" التي ستقلب

* أوبولعيدا: المقصود به الشهيد مصطفى بن بولعيد ، الذي انخرط في حزب الشعب الجزائري 1944 م.

** مصالي الحاج : رئيس حزب الشعب

¹ أنظر: حنون مبارك . الأغنية الشعبية الجديدة (ظاهرة ناس الغيوان) . منشورات عيون ، دار قرطبة للطباعة

الموازنين وتعيد لأصحاب الحقوق حقوقهم وشرعية امتلاكهم الأرض، والعيش في كنفها
بسلام.

هكذا راحت الحناجر تغني للثورة والثوار ، ولعل صوت الرصاص منتصرا
لدموع الثكالي واليتامى والفقراء ، والضعفاء والعاجزين ، ينتصر لكل قطرة دم سفكها
المستعمر الغاشم طوال تواجده بالجزائر .

واستطاعت بذلك الأغنية الشعبية أن تتحدى الزمن ، لأنها نبعت من أصالة
التربة ومن أصالة النفس¹ وتعد موضوعات المقاومة والثورة ، والبطولة والحماسة،
ونشوة الانتصارات وما يتصل بالحرب بصورة عامة² من أهم المواضيع التي تعرض
لها النص الغنائي بمنطقة الوادي الأبيض وبأكثر تفصيل مواضيع : الإعلام والإتصال
، التحريض على الجهاد ، الإشادة بانتصارات الشخصيات الثورية وانتصارات جيش
التحرير الوطني ، التغني بشخصيات ثورية وطنية معروفة، وصف معارك الثوار مع
قوات الاحتلال الفرنسي ، الهجرة والنفي ، الخونة، وصف ما تكبده المجاهدون من
أجل تحريرالجزائر ، الدعوة لجمع المال لصالح الثورة...

وهي مواضيع تعكس بحق ، مدى الوعي الذي وصل إليه الشعب الجزائري
في تلك الفترة ، وضرورة تقرير مصيره ، باعتبار أن الأدب بشكليه النثري
والشعري مرآة عاكسة لما هو موجود في الواقع ، والأغنية الشعبية على وجه

¹ أنظر: همام طه- مؤشرات في الأغنية الفولكلورية العراقية . مجلة التراث الشعبي ، ع1/س08/1977م ،

² أنظر: العربي دحو - الشعر الشعبي ودوره التحريرية . ج 1 ، ص 87

الخصوص ذات المضامين التحررية والإنسانية ، لتقف شواهد مضيئة بوجه الذين لم يتهياً لهم أن يروا سوى الجوانب السلبية¹ من الأدب الشعبي.

وأولى هذه المواضيع التي عالجتها الأغنية الشعبية موضوع الاتصال والإعلام ، فبعد أن انقطعت السبل وتقطعت الأسباب والأخبار ، واشتد حصار المستعمر الفرنسي للجزائريين عموماً ، والمجاهدين خصوصاً ، لم يجد المبدع من سبيل للتعبير عن هذا الوضع ، سوى كلمات مفعمة بمعاني المعاناة والسخط والتمرد والشكوك.

ففي وقت استحال فيه تنقل المجاهدين لرؤية ذويهم ، أو حتى الاتصال بهم، راح المغني الشعبي يخفف عن الشعب آلامه ويصور معاناته ، ناقلاً رجاء أحد الثوار أمه ، حتى لا تذرف دموعها الغالية ، لأن أخباره انقطعت عنها ، فلا يمكنه بعث رسائله ، ولا الاتصال بالهاتف ، الذي يعد وسيلة اتصال مستحيلة المنال بالنسبة للشعب الجزائري آنذاك ، ولم يبق له من خيار سوى الموت في صفوف جيش التحرير، رافضاً رفضاً مطلقاً تسليم نفسه للاستعمار :

مَا تَبْكِيْشْ لَمِيْمَةَ

مَا تَبْكِيْشْ لَمِيْمَةَ

لَبْرِيَّةَ مَا نُجْبِنِيْشْ

وَهَذِي الْهَدْرَةَ فِي الدَّبِيْشْ*

نُمُوْتُ فِي الْجِيْشْ

¹ أنظر: طلال سالم- الشعر الشعبي والانتفاضات التحررية . مجلة التراث الشعبي ، ع10، س8 ، 1977 ، ص

* دبّيش: كلمة فرنسية La Dépêche وهي وسيلة اتصال ، المقصود بها الهاتف آنذاك

أومانرنديش**

كما لعبت الأغنية الشعبية بالوادي الأبيض دور المحرض على الجهاد والثورة ، منتهجة سياسة شحذ الهمم وتقوية العزائم والعزف على وتر العاطفة ، حتى تضمن استقطاب اهتمام الشباب وتعاطفهم مع القضية الوطنية ، وبالتالي اعتناقهم لها.

والنص الغنائي الثوري له دوره الفاعل قبل الثورة وأثناء اشتعالها، فيغني للخلص من الظلم ، متفائلا بالصبر، أصف إلى كونه يتدفق حبا وولاء للثورة بعد الانتصار.¹

ومن الصور الحية التي نجحت ، الأغنية الشعبية في نقلها ببراعة ، هجوم مفاجئ لقوات الاستعمار الفرنسي على مواقع المجاهدين ، بعدما إصطفت طائراته الحربية في المساء ، وهي تتأهب لشن هجومها ، وإذا بأحد الجنود يسارع لإعلام جيش التحرير، غير آبه أو مبال بحياته ، فالجهاد يكفيه فخرا ، وهي دعوة ضمنية للشباب للالتحاق بقوات جيش التحرير آنذاك ، وتشجيعا لهم على الجهاد ، وكسر حاجز الخوف والتردد:

يَمَّا حَنَا	أمي الحنون
بُوفَرَاقْ* إِعْدَلْدُ أَجْنَا	بوفراق توسطت السماء
أَسْجَبِيْعُ ف- لُجِيْشْ	سأتفقد الجيش
مَا يَلَا	إن هو هناك

** مانرنديش: كلمة فرنسية بمعنى لا أسلم نفسي

¹ أنظر: جبريل حمد - الأغنية الفولكلورية في العراق - مجلة التراث الشعبي - ص 178

* بوفراق: نوع من الطائرات الحربية التي استعملتها فرنسا في حربها على الجزائر.

مَا مُوْتَعُ مَاثَا فَلَاً وَإِنْ مَتْ فَلَا عَلِي
يَمَّا حَنَّا أَمِي الْحَنُون
مَاثَا ذَ لَحَلْفُ إِدْيُوعِينُ أَجَنَّا مَا أَقْوَى هَذَا الْحَلْفُ فِي السَّمَاءِ
أَسْجَبِيغُ ف- لُجَيْشُ سَأَتَقْفِدُ الْجَيْشِ
مَايَلًا إِنْ هُوَ هُنَاكَ
مَا مُوْتَعُ إِنْ مَتْ
الْجَهَادُ بَرْيَاذُ فَلَاً الْجَهَادُ يَكْفِينِي فخرًا

واعتمادا على الوصف الحسي ، يتفانى المغني في نقل مشاهد مروعة عن واقع تلك الحرب ، التي شنتها فرنسا على شعب أعزل ، حيث لم تدخر جهدا ولا وسيلة إلا واستعانت بها لفرض سلطتها وقهرها للشعب الجزائري ، خاصة منهم الثوار وقد شاعت آنذاك أسماء مختلفة لأنواع عدة من الطائرات الحربية . وهذه طائرة عمودية الشكل (لبنان) بدأت بإنزال الجنود الفرنسيين ، بينما تقوم طائرة أخرى مقبلة بقصف الجبال ، في حين يستعجل أحد الجنود المجاهدين ، للاستماع لأوامر أحد مسؤولي الكفاح المسلح آنذاك والمدعو (بلديا) قصد توجيههم في مثل هذه المواقف التي تحتاج إلى ضبط النفس والتصرف بحكمة.

لُبْنَانَا تَسْرُوسَا* مروحية تنزل
أُورِيغَةَ تَثْرُورًا** و طائرة تقصف
أَسْجَبَاتْدُ آيَا يَنْمًا أطلوا يا إخواني

* لبناننا: طائرة عمودية على شكل موز، تستخدم للإنزال والإجلاء

** أوريغة: طائرة مقبلة ، صفراء اللون un avion chasseur banbardier

مَا تَا يِقَّازُ أُوبُلْدِيَا ***
 مَاذَا يَقُولُ بِن بَلْدِيَا
 وَوَلْبَانُ تَسْرُوسَا
 مَرُوحِيَّةُ تَنْزَلُ
 وَأُورِيغَةَ تَنْزُورَا
 وَطَائِرَةُ تَقْصَفُ
 أَطْلُوا يَا إِخْوَانِي
 مَاذَا يَقُولُ بِن بَلْدِيَا
 مَا تَا يِقَّازُ أُوبُلْدِيَا

وفي أغنية أخرى يتخذ المغني من لون الطائرة ، وسيلة لرسم المشهد الحربي حيث يصف طائرات صفراوات ، غطت زرقة السماء شرقا ، مشددة الحصار على المجاهدين مما تسبب في شل الحركة ، وانقطاع أخبار المجاهدين، ورسائلهم ، بانقطاع أخبار (الشاطر ابراهيم):

هَيْطَارِينْ هِيُورَاغِينْ
 الطائرات الصفراوات
 إِذْيُوعِينْ شَرْقُ أَذْلَالِينْ
 جاءت من الشرق خطأ
 سِيَقُ رُوحُ شَاطِرْ اِبْرَاهِيمْ
 منذ غاب الشاطر ابراهيم
 لَا لَخْبَرَ لَا هِيْبِرَاضِينْ
 لا أخبار و لا رسائل

وتنتصر الأغنية في موضع آخر للثورة ، بتصوير حجم الخسائر البشرية التي ألحقها المجاهدون بقوات الاحتلال الفرنسي ، وقد خيمت رائحة الموت على المكان ، أين حطت طائرات الإجلاء لنقل الموتى ، وإنقاذ ما تبقى من أحياء من موت أكيد ، لتخص الأغنية الحرب ، بأنها حرب المسلمين ، لتضفي عليها بعدا دينيا.

*** أولديا: لم نعثر عن معلومات عنه .

ويكتسب الثوار صناعة ضد الرهبة من طائرات العدو وقذائفه ، وضد ما يصيبهم من جراح وتقتيل ، فهناك طاقة مخيفة داخل النفس الثورية ، تمنع صاحبها من الهلع ، فيلاقي الموت مبتسماً¹ مثلما تجسده الأغنية الموالية ، والتي تصف الثوار كأسراب حمام ، يهاجمون طائرات العدو، دلالة على وحدة صفوفهم وطلقات أسلحتهم ، و يعد المغني الشيخ "دردور" بزيارته وإقام الوعدة ، إذا تحقق النصر والأمن والسلام بالمنطقة ، وكأنه يستجد بكرامات هذا الولي الصالح ، وهي اعتقادات شاعت وذاعت في مختلف أقطار البلدان العربية منذ زمن بعيد ، ومازالت إلى يومنا هذا:

خَرَجُوا بِسَلَاخٍ	خَرَجُوا بِسَلَاخٍ
أَحْمَامٌ أَطْيُورٌ	أَحْمَامٌ أَطْيُورٌ
نَشَائِنُ هَاطِيَارْتُ لُمُوتُورُ	يَضْرِبُونَ طَائِرَةَ الْعَدُو
أَلْوَعٌ دَنْكَ أَيَادِرْدُورُ*	وَعْدِيَا دَرْدُورُ
مَآيْرَسَ لَهْنَا أَدْنُورُ	إِذَا انْتَهتِ الْحَرْبُ سَنْزُورُ

كما ذكرت الأغنية الشعبية كثيرا من الأمكنة ، ولكن الجبل والمدينة والقرية والسجن هي الأماكن الأكثر حضورا في مخيلة الشاعر، فهي تتحد جميعها في كونها رموزا يتزامن من خلالها الوطن بأسمى معانيه ، فراح يخاطب المكان وكأنه إنسان يصنع الملامح البطولية² كما في النص الموالي:

¹ أنظر: صيام زكريا - معالم شخصية الجزائر في شعر جزيرة العرب . مجلة الثقافة - ع 104، س 19، سبتمبر ، أكتوبر ، الجزائر 1994م، ص 192

* دردور : شيخ الزاوية الدردورية بوادي عبيد .

² أنظر: أحمد حيدوش - المكان ودلالاته في الشعر الجزائري إبان ثورة التحرير (1954م . 1962م) - مجلة الثقافة، ع 104، س 19، وزارة الثقافة ، الجزائر ، 1994م ، ص 118

يَا جَبَلُ لَزْرَقٍ * العَالِيَا

سَكْنُوهُ أَذْرَارِيَا

الْحَبِّ وَالرِّصَاصِ إِثَالِيَا

أَعْلَى جَالِ الْوَطْنِيَّةِ

إنه الجبل الأزرق العالي ، الذي سكنه المجاهدون (الشباب) ، فلا تسمع فيه إلا صوت الرصاص ، من أجل الوطن والحرية.

وفي أغنية أخرى ، يستأنس المغني بالجبل الأزرق ، فيتبادل معه أطراف الحديث ، ويخبره بوشاية مجهول ، سهلت على قوات الاحتلال محاصرة مخابئ المجاهدين ، وتشير الأغنية إلى صغر سن هؤلاء المجاهدين ، الذين تزينهم أحزمة الخراطيش :

يَا جَبَلُ لَزْرَقٍ

يَا جَبَلُ لَزْرَقٍ

أَمْشَاتُ الْبَيْعَةِ عَشَّ امْسِرْكَلْ **

أَذْرَارِي شُبَّانُ لَمْحَارِمٍ تَشْعَلُ

فمناجاة الجبل تمد الإنسان بالعزيمة والصلابة والثبات ، لأنه يذكره بأسلافه العظام، ليعيد إليه وعيا افتقده منذ زمن بعيد.¹

** جبل لزرَق : جبل يقع بين وادي عبيدي و الوادي الأبيض ، وعلى سفوحه تقع قرية ناره ، أين استشهد البطل مصطفى بن بولعيد .

** أمسركل: كلمة فرنسية، بمعنى محاصر

¹ أنظر: أحمد حيدوش - المكان ودلالاته في الشعر الجزائري - مجلة الثقافة ، ص 120

إن الثوار عبر هذه النصوص الغنائية يغلزون أجنحة المستقبل الوضاء ، عبر ليل داج حالك السواد ، فيحولون الظلام ؛ ظلام القهر والاستعباد إلى خيوط صباح مشرق ، ثقة منهم بقوة سلاحهم الخفية التي تتحكم بواسطتها جميع أسلحة العدو، مهما بلغت درجة قوتها وحدائتها.¹ مقدمين على الموت، بثغور باسمه تتحدى قنابل الاستعمار، وأرواح متعطشة للشهادة والحرية ، رغم العدد الهائل لجنود الاستعمار. إيماننا منهم أن التراجع خزي وعار.

جَبِيْتُ عَلَى بُوحَمَامَةَ*

لَقِينَا لِعَسْكَرِ عُمَامَةَ

يَاخُوتِي وَاشْ مَالِهَانَا

أَوْلَادَ الشُّهَدَا لِنَيْتَامِي

إِذَا قَدَّمْنَا شَعَلْتِ النَّازِ

وَإِذَا وَخَرْنَا هَذَاكَ الْعَازِ

وما من شك أن معاناة الثوار ، أكبر بكثير مما يمكن أن نتصوره ؛ أبطال تكبدوا العذاب والجوع والعري والسكن في أعالي الجبال من أجل تلبية نداء الوطن، فقطعوا المسافات الطوال ، مشيا على الأقدام الحافية ، وقد أنهكهم التعب والمرض.

جِينَا مِنْ عَنَابَةِ

وَإِحْنَا مَرْضَى وَغَلَابَةِ

أَسْمَحِيلِي يَايَمَةَ وَبَابَا

¹ أنظر: صيام زكريا - معالم شخصية الجزائر في شعر جزيرة العرب - ص 192-193

* بوحمامة : منطقة جنوب شرق جبل شيليا

هَذَا الْحَرْبِ اللَّي نَادَى

ويعدد نص غنائي آخر ، الأيام التي قضاها الجنود راجلين ، وهي سبعة أيام متتالية ، قدوما من عين أمليّة ، ونظرا للتعب الذي ألم بهم خيموا بإحدى الجبال ، راجين العناية والفرج من الله تعالى .

جِينَا مِنْ عَيْنِ أَمْلِيَّةٍ

سَبْعَ أَيَّامٍ عَلَى رَجْلَيْنَا

أَوْصَلْنَا لَجِبَالٍ كَمَبِينَا *

يَارَبِّي فَرِّجْ أَعْلَيْنَا

وفي رواية ثانية:

أَرَبِّي عَسَّاسٌ أَعْلَيْنَا

تعهد المغني الشعبي وصف حالة المجاهدين المزرية ، سعيًا منه للعزف على أوتار العاطفة ، لجلب مساندة الشعب للقضية معنويا وماديا ، ومن النصوص التي تصور الوضع المتدهور الذي وصل إليه المجاهدون جراء تشديد الحصار عليهم من قبل المستعمر ، ومدى حاجتهم للنزول من مخابئهم ، لأخذ ما يلزمهم من مؤونة، فهي تدعو لتأمين الطريق لهم ، لتنتهي بدعاء على شاكلة الكثير من الأغاني الثورية:

أَهْوَتَدَّ أَيَّا إِعْسَاسَنَّ إِنزَلُوا يَا حِرَاسَ

الْجُنُودُ أَحْسَنُ أَدَاسَنَّ الْجُنُودُ يَرِيدُونَ الْمَجِيءَ

أَهْنُ عَيْنُ أَمْسَاكَنَّ إِنَّهُمْ يَثِيرُونَ الشَّفَقَةَ

أَرَبِّي فَرِّجْ فَلَاسَنَّ يَارَبِّ فَرِّجْ عَلَيْهِمَ

* كمبينا : لفظة مأخوذة من الفرنسية ، بمعنى خيم أو عسكر ، و معناها في النص ، التخفي بحذر

ولم تغفل الأغنية الشعبية بالوادي الأبيض ، عن إبراز أهمية الدور الذي قد تؤديه المرأة في مثل تلك الظروف ، لذلك خاطبتها بلهجة حادة ، لتحرك فيها روح المسؤولية والتأهب لمشاركة الرجل عبء القضية الوطنية ، فوصفتهم (النسوة) بمتحجرات القلوب ، دلالة على قساوتها ، لأنهن يتزين بالذهب والفضة ، في وقت يببت فيه الجنود بين الثلوج بلا برانيس ، وبنزعة الأمر، تأمرهن بنزع حليهن ، وهي دعوة صريحة لجمع المال لصالح الثورة ، وكذا تلميح ضمنى للنساء اللواتي يتقن حرفة النسيج ؛ نسج البرانيس للجنود.

الشباب بلا برانيس	أدْرَارِي بِلَا يَعْلَاوُنْ
يببتون في الثلوج	أَتْتُوسَنَ قْ دَفْلَاوُنْ
انزعن الذهب و الفضة	أَكْسَمْتْ أُوْرَغْ ذِي زَرْفَاوُنْ
انزعن الذهب و الفضة	أَكْسَمْتْ أُوْرَغْ ذِي زَرْفَاوُنْ
يا قاسيات القلوب	أَهْبَرَادِينْ أُمُ وُولاوُنْ

وبالمقابل تتقل الأغنية الشعبية رد فعل السلطات الفرنسية ، على رأسها "ديغول" الذي استاء من هؤلاء المدنيين الذين يمولون الثورة ، وتستغل الأغنية هذا الاستياء لصالحها، لتحرض الشباب من افتكاك النصر من العدو ، والنزول من الجبال بالنجمة والهلال ، رمز العلم الجزائري.

الشعب يتبرع بالمال	يَاسِفِيلْ إِبْرَغُ الْمَالْ
و ديغول إمتعض	أَدِيغُولْ إِبْرَغُ الْحَالْ
إن كنتم أبناء الحلال	مَاتْلَامْ تَارُوا لِحَالْ
إن كنتم أبناء الحلال	مَاهَلَامْ تَارُوا لِحَالْ

أَهْوَيْدُ سِنِّ نَجْمَةٍ وَ هَلَالُ
اهبطوا بالنجمة و الهلال

أما موضوع الخونة ، فكان حاضرا بقوة في النصوص الغنائية الثورية ، أين
تعمد إلى نبد هذه الشريحة من المجتمع ، والتي باعت الوطن من أجل قطعة جبن،
وقد نعنتهم بأقبح الصفات منها: الخونة، الكلاب، لخماج.....

القومية لَخْمَاجُ	الخونة القذرة
إِرْبَذَانُ قَلِّ فَرْمَاجُ.	استسلموا من أجل قطعة جبن
عَاوَنْتُ أَدْرَارِي قَلِّ - حُجَاجُ	ساعدوا الشباب
إِتْكَافَاحُنْ سَلِّ - كُورَاجُ*	يكافحون بشجاعة
القومية* لَكَلَابُ	الخونة الكلاب
عَاوَنْتُ لَوْلِيَةَ عَغِ الْحِرَابِ	ساعدوا الأولياء** على الحرب
الاستعمارُ مَادُونُ يَعْجَابُ	هل أعجبكم الاستعمار
يَا القومية يَادَمِيَةَ	يا الخونة يا السفلة
تَزْرَنْمُ الدِّينِ سِنِّ - تَلْتَامِيَةَ	بعتم الدين بثلاثمئة
نَشْنِي أَوْ نَحْسَسُ المَالِيَةَ	نحن لا نريد المال
نُحْسُ العِيشَتِ الحَرِيَةَ	نريد حياة الحرية

وتستكر الأغنية صنيع هؤلاء الخونة وضعفهم ، وتستجد ببركة وكرامات
الأولياء الصالحين لإعانة المجاهدين على الحرب ، لأن الشعب لم يرض يوما بالمال
بديلا عن الحرية ، أو غيرها من إغراءات المستعمر .

* كوراج: كلمة فرنسية بمعنى الشجاعة

** القومية : بمعنى الخونة

*** الولية : و يقصد بهم الجنود الذين تقدسهم الأغنية ، و تضعهم في مرتبة الأولياء الصالحين .

وفي مقام آخر تتوعد الأغنية -على لسان مرديها- الخونة بالقتل، فخيانتهم مسجلة، ولا مفر لهم من مواجهة مصيرهم المحتوم.

أهُوتَيْدُ يَا لِحَرْكَةَ اهبطوا أيها الخونة

أهُوتَيْدُ يَا وَبِرْكَأَ اهبطوا وكفى

الْخَايِيَنَّ وَنْ -إِمَارْكَأَ خيانتكم مسجلة

أَسْنُونْ -حَدْ- أُوْكْنِي تَفُوكَا . يومكم لا أحد سينقذكم فيه

وكثيرا ما تذكر الأغنية بقداسة العهد ، الذي قطعه المجاهدون على أنفسهم من حفظ السر، وتضرب مثلا بكتيبة " أوعاني " ، التي تعهدت بصيانة الدين والعهد ، متوعدة الخونة بالموت .

تُكَبَّانِيثُ نْ - أُوْعَانِي كتيبة بن عاني

إِقْرِيَيْنْ فَالْدِينْ دَ لِعَاهَدْ التي خرجت من أجل الدين و القسم

و - إِيْقُومَانْ إِلاَ ذِ - شَهَادْ من خان فليشهد

أَدْرِيْ أُوْخْذَمِيْ أَدِ جَاهَدْ يخرج السكين ليجاهد

وهذا جندي يشكو لأمه ضيق الخندق عليه ، ويصور محاصرة الخونة الذين خانوا العهد الذي قطعه على أنفسهم.

أَيْمَا حَنَا أمي الحنون

الْتَرَانِشِي يَحْشَرُ فَلَا الخندق ضيق علي

لُقُومِيَا إِعْشَا هُسْرُكَلَا الخونة أمسوا محاصرين

وَاقْرِيَيْنْ الْعَاهَدْ يَلَا من خان ، فالقسم شاهد

ولم تنس الأغنية معاناة الشعب ، جراء نفي بعض العائلات والرجال من أرض الوطن إلى جزر كيان وكورسيكا، لأنها شريحة عرقلت خطط الاستعمار، وقاومته بكافة الوسائل الممكنة ، فاتخذت من القلم والكلمة والصوت سلاحا لدحر العدوان وإثارة حماس الشعوب وشحذ الهمم ، واستنفار العزائم للتضحية والفداء ، فكانت الجماهير تغني فرادى وجماعات بكلمات تلهب المشاعر وتتصدى للطغيان والجبروت¹ وهكذا أخذت الأغنية الشعبية طابعا حماسيا² يزيد من النار المتأججة في نفوس الجزائريين ، جراء ما ألحقه المستعمر بهم من أذى.

يَا جَبَلُ لَوْرَاسِ الْعَالِيَا
 سَبْعُ سَنِينَ وَالنَّارُ تَقْدِي
 غَاضُونِي الرِّجَالُ الْمَنْفِيَا
 مَا يَفُكُ الْفِكَاكُ مَنْ غَيْرِ الْعَالِيَا
 غَاضُونِي الرِّجَالُ
 غَاضُونِي الرِّجَالُ وَمَا بِيَأْشُ الْمَالُ
 عَفْسُوا فِي النِّضَالُ
 اللَّيِّ حَرْقُوا الْجَبَالُ

ويبقى المنفي أو المهجّر يتوق للعودة إلى وطنه ، بعد أن أرغم على مغادرته ويظل البعد عنه مثيرا للشجن دائما ، يهيج الذكريات ، وأمل المرء أن يعود يوما

¹ أنظر: عبد الرزاق عمر بن الطاهر - الموسيقى العربية وتأثيرها بالإطار الحضاري للبيئة المحلية . المجلة العربية للثقافة ، التراث و الموسيقى ، العدد 48 ، السنة 24، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ديسمبر 2005م، ص57

² أنظر: بلحيا الطاهر - التراث الشعبي في الرواية الجزائرية - دراسة - منشورات التبيين ، الجاحظية، سلسلة الإبداع الأدبي، الجزائر ، 2000م ، ص 12

إلى البلد الذي شب فيه وسط أشخاص أعزاء عليه ، وأشياء حبيبة إلى نفسه ، يخفف عادة من حسرات المهاجر وآلامه وتصبح الحسرة أكثر إيلاما كلما كان هذا الأمل أشد

استحالة أو ضاع إلى الأبد¹

بُحَالٌ أَيْمًا

سَنِيتٌ * بِيْدِيَا

نَعْيًا وَنُرُوحٌ لِمَالِيَا

وفي موضوع الهجرة ، يتحسر هذا المهاجر على نفسه ، نادما على إخبار أمه

بهجرته ، والتسبب في إيدائها.

ركبت السفينة و بكيت

رَكَبْتُ ذِ . لِبَابُورِ إِلِيغْ

وصلت فرنسا و تذكرت

اخْلَطَعْتُ فَرَنْسَا مَكْتِيغْ

لم أخبرتك ؟

مَا عَزُرَ إِيْمَنِيغْ ؟

يا أمي ندمت

أَيْمًا وَأَنْدَمِيغْ

رفعت القلم و أمضيت

رَفَدَعْتُ أَسْتِيلُو سَنِيغْ

ورغم الجهل الذي كرسه المستعمر عن طريق هدم جميع المؤسسات الثقافية،

ومنع الناس من التعلم ، إلا أن هذا لم يحجب عن الشعب ، إدراك حقيقة المستعمر

وأهدافه ، لذلك يشكو أحدهم جهله وفي نفس الوقت اعتناقه للقضية الوطنية من أجل

إخراج العدو من بلاده ، مضحيا بفلذات أكباده:

¹ أنظر: الطاهر أحمد مكي - مرثية أندلسية مجهولة - الجمعية العلمية للمخطوطات والتراث ، أبحاث مؤتمر

التراث الأندلسي - الشخصية والأثر -، دارالوفاء لندنيا الطباعة و النشر ،الإسكندرية ،جمهورية مصر العربية

(دتا)، ص09

* سنيت: كلمة فرنسا بمعنى الإمضاء

يَا خُوتِي مَانِيْشْ قَارِي
 سَبْعُ سَنِيْنٍ وَوُلِيْدِي هَامَلًا
 حَرَجَ لُعْدِيَانِ مَنْ بِلَادِي
 سَبْعُ سَنِيْنٍ وَأَنَا هَامَلًا
 وَبَابَا حَنِي خَلِيْتِ أَوْلَادِيَا

وتذكر الأغنية في مواضع أخرى ، معارك وحوادث بالأسماء وأحيانا بالتاريخ الدقيق ، فضلا عن المعاناة التي يعانيها جنود جيش التحرير سواء في أثناء المعركة ، أو في أثناء التنقل ، أو بالأحرى كل ما يخص جيش التحرير ، يتناوله الشاعر ويعطيه أهمية بالغة¹ وحتى ردود فعل الاستعمار يسجلها الناس أحسن تسجيل ، بذكر أسماء شخصيات بارزة سواء منها الشخصيات الوطنية أو العربية أو الشخصيات الفرنسية ومن الأغاني التي ترتبط بأحداث تاريخية معينة أغنية:

يَا شُبَّانُ آرِيْسْ
 يَا شُبَّانُ آرِيْسْ
 إِيْحَبَّسْ الْكَازْ
 قَالُو مَا يَمْشِيْشْ

وفي رواية ثانية:

يَا شُبَّانُ آرِيْسْ
 يَا شُبَّانُ آرِيْسْ

¹ أنظر: العربي دحو - مقاربات في الشعر الشعبي العربي في الجزائر- دراسة ، ط1، مديرية الثقافة، سطيف،

وَقَفُّوْ لِيَشَارْ

قَالُوْ مَا يَمْشِيْشْ

بَنْ بُولَعِيْدُ رَائِسْ هَذَا الْجِيْشْ

وهي أغنية تؤرخ لإندلاع ثورة التحرير الكبرى ، أين قام المجاهدون بنصب حاجز بخلوق تيغانيمين ، وأوقفوا الحافلة الرابطة ما بين (أريس - بسكرة) ، وقاموا بقتل قائد دوار مشونش ، مما أدى إلى انتشار الخبر بين الشعب ، بإنطلاق ثورة مباركة ، وأعلنوا بن بولعيد قائدا لها ، وما ترديد أو نظم هذه الأغنية ، إلا دليل قاطع على اعتناق الشعب للثورة ، ومساندته لها ولصانعيها.

وهذه أم تبكي لوعة فراق ابنها (قاقا)، بعدما تعودت على رؤياه كل صباح، يمر مع فرقته ، ولما سمعت باستشهاده ، راحت تئن أنينا صارخا ، مزق القلوب والأذان ، وقد ترجمت هذا الألم في أغنية مازالت تردد . إلى اليوم . ، تصور فاجعة هذه الأم في ابنها (قاقا) الذي تتادي عليه ؛ تسأله عن رشاشه ، وتخبره عن مرور فرقته من دونه ، مخلفا وراءه أمًا يثير حالها شفقة كل من رآها ، وعلم بمصابها الجلل ، ويقال إن أول منطقة ظهرت فيها هذه الأغنية ، منطقة بوصالح (بليهود) التي شهدت الحادثة.

قاقا ابني

أشَا قَاقَا * مَمَّ يَّي

أين رشاشك؟

الرَّ فَالْ أَنْكَ مَانِي؟

فوجك مر بالأمس

لَفْرُوبْ عَدَّانْ إِضْلِي

أمك تبكي حزينة

يَمَاكْ ثِيْلْ نُعْنِي

* قاقا: صيغة تصغير لاسم بلقاسم

أما عن الرموز الوطنية ، فوظف النص الغنائي في الوادي الأبيض ، عدة أسماء بارزة ومعروفة ، منها "الحاج لخضر" الذي تصدى للاستعمار الفرنسي ، فتصوره الأغنية في أعلى المراتب العسكرية ، افتخارا به ، مهددة به "ديغول" ، حتى ينفذ بجلده قبل فوات الأوان:

يَا الْحَاجَّ لَخْضَرَ *

لَا بَسَ لَخْضَرَ

يَا الْحَاجَّ لَخْضَرَ

لَا بَسَ أَكُونَرَالْ

أَهْرَبَ يَادِيغُولْ

أَشَعَلَتْ فِيكَ النَّارْ

وهذه الأغنية على الأرجح ، نظمت ورددت أثناء الثورة التحريرية في الفترة التي تولى فيها الحاج لخضر ، قيادة الولاية التاريخية الأولى، إلى جانب "الحاج لخضر ، نجد " بن بولعيد" و " قرين بلقاسم" اللذين تفتخر بهما الجزائر ، والنص عبارة عن رسالة شفوية ، تتضمن وصية قرين بلقاسم لابن بولعيد ، يوصيه فيها خيرا بالوطن والدين ، والحرب التي تركها أمانة في أعناق المجاهدين .

يا بن بولعيد

يَا بَنَ بُولَعِيدْ

قرين يقرؤك السلام

إَيْتَسَالْدُ فَلَاكَ قُرَيْنٌ **

يقول لك حافظ على الدين

يَقَارِكُ أَتُهْلَا ذِ - دِينْ

* الحاج لخضر : اسمه الحقيقي ابيدي محمد الصالح ، كان قائد الولاية التاريخية الأولى (الأوراس) ؛ من

الأوائل الذين فجروا الثورة ، توفي في التسعينات .

** قرنون: صيغة تصغير (قرين) ، الغاية منها تدليل البطل

هذه حرب المجاهدين

أذْ لِحْرَبْ لُمَجَاهِدِينَ

وقد خص المغني الشعبي "قرين بلقاسم" بأغنية رائعة ، يصفه من خلالها وصفا حسيا ، فهو ذو عينين زرقاوين ، يحمل سلاحا خماسي الطلقات يجعل منه المبدع الشعبي سلاحا ذا ألفي طلقة ، وحزام خراطيش بطول مترين ، على سبيل التباهي والمفاخرة ورسم صورة بطل مليح القد والوجه، يسقط بطلقة رصاص واحدة منّي جندي على سبيل التباهي بقدرته على حسن التصويب:

يَا قُرَيْنُ يَا قَرُونُ

يَا زَرْقَ الْعَيْنَيْنَا

أَلْخَمَائِسِي فِيهِ أَلْفَيْنُ

وَلِحَزَامٍ فِيهِ مَتْرَتَيْنُ

آ.... لُحْبَةَ حَبْتَيْنُ

وَطِيْحُ مَيْتَيْنَا

إن المبدع الشعبي رسم صورة بطل محبوب ، فأضفى عليه صفات خارقة للعادة ، ليعد بذلك نموذجا حيا من نماذج أبطال الثورة الأسطوريين ، الذين أربوا العدو، وأعجزوه من النيل من الجزائر، بفضل تضافر الجهود وتوحد الهدف، وتجاوز الخلافات الفردية.

وهذا بطل آخر، تحتفظ به الذاكرة الشعبية وتقلده مكانة رفيعة ، وتخصه بأغنية رائعة ، ترسم مشهدا بطوليا لهذه الشخصية التي تدعى "حند أوعزا". وقد انتابه حماس شديد ، في معركة وقعت بجبل (المحمل) ، أين دوى صوت الرشاش،

الذي لم يذر جنديا واحدا من جنود فرنسا ، وهذا يوحي بضراوة الحرب، وحماس "حند
أوعزا"، وإقباله على الموت ، باسم الثغر .

أوحَابَة ذِ ايمَسْوُلُ	حَابَة مَسْوُولُ
سِي حَنْدُ أُوَعْرَا يَنْهَوُلُ	أحمد عزوي تهول
هَابِيَاَسْتْ* هَرْعِي ذ-لَمَحْمَلُ	الرشاش دوى في المحمل
قَاوْرِي لَّا يَرْوُحْدُ يَجْمَلُ	ولا فرنسي سلم

بهذه الأسماء اللامعة في السَّجَل الثوري الجزائري ، نختم هذا المبحث الذي
توصلنا فيه من خلال تحليلنا لجملة من النصوص ، إلى أن الأغنية نقلت بصدق
مشاهد حية عن أحداث ومعارك الثورة ، وأهم أبطالها الذين تربعوا على قلوب الشعب،
لأنهم ضحوا بأنفسهم لينعم غيرهم بحياة الحرية.

* هابياست: Une pièce ومعناها في النص "مدفع رشاش"

المطلب الثالث : أغاني الاستقلال وما بعده

" إنَّ نظرة الشاعر المتفائلة إلى مستقبل الثورة وتقديسها ، وتمجيد بطولات صانعيها ، والسخرية من المستعمر، وإبراز طابعها الشعبي والتأكيد على مبدأ الوحدة الوطنية ، والتفتح على ما يجري في المحيطين العربي والدولي"¹ هي التي أسهمت بشكل أو آخر في نجاحها والتغني باستقلال الجزائر فيما بعد. كما في الأغنية الموالية ، التي تخاطب ديغول ، وتطلب منه الرحيل من هذه الأرض الخصبة ، فقد أصبحت حرة مستقلة ، وبذلك تغير حال "ابن بلة" :

سِيرُ يَا دِيغُولُ

سِيرُ فِي حَالِكُ

وَبِلَادُ الْحَضْرَا مَا هُوَ دِيَالِكُ

جَزَائِرُ الْحُرَّةِ رَاهُو تُغَيِّرُ حَالِكُ

أَبْنُ بَلَّةِ وَتُغَيِّرُ حَالِكُ

وعلى ذكر الزعيم " بن بلة" نجد أغنية تتغنى به ، وتهنئه بالاستقلال الذي حصده بدم الشهداء ، بعد سبعة سنين من الحرب.

آبْنُ بَلَّةِ

يا بن بلة

آبْنُ بَلَّةِ

يا بن بلة

جَمَلْدُ الْجَيْشِ

اجمع الجيش

مَانِي قَلَّا

حيثما كان

سَبْعُ سَنِينَ الْمَدَّلَةِ

سبع سنوات من المذلة

¹ أحمد حيدوش . المكان ودلالته في الشعر الجزائري . ص 118

أَرْحَنَا لاسْتِقْلَالَ ربحنا الاستقلال

بَدَمَ الشُّهَدَا بدم الشهداء

واقترن كثيرا ذكر الشخصية الثورية " بن بلة" بالاستقلال ، فالنص الموالي،
يبشر المدنيين بالاستقلال الذي لاح نوره ، طالبا منهم التأهب للتعبير عن فرحته ،
وبفرحة عودة ابن بلة سالما.

أَكْرُ فَلَاكُ أَسْفِيلُ قم أيها الشعب

أَكْرُ فَلَاكُ أَنْزَهِيذُ قم لتفرح

الاسْتِقْلَالَ إِخْلَظْ الاستقلال وصل

أَبْنُ بَلَّةِ إِرْوَحْدُ ابن بلة رجع

كما ترف الأغنية الموالية ، خبر الاستقلال للشباب المجاهدين الذين اعتصموا
بالجبال وتطلب منهم النزول منها ، فالاستقلال لأبناء الجبال.

أَهْوَادُ أَسِي عَمَّارُ انزل يا سي عمَّار

أَهْوَادُ سَقْ - دُورَارُ انزل من الجبال

الْفُومِيَّةَ أَهْنِ ذِ - لَهْوَالُ الخونة في أسوأ حال

لِاسْتِقْلَالَ إِثَارَوَى نْ - دُورَارُ الاستقلال لأبناء الجبال

وبعد الاستقلال ؛ هلت مرحلة جديدة ، تعنى باهتمامات الشعب على كل
الأصعدة ، بما فيها ضرورة تعويض أبناء الشهداء ، الذين أصبحوا في عهد (بومدين)
رجالا ، وتدعو الأغنية هذه الشخصية ب : (عمي) دلالة على قربها من الشعب ،
والمنزلة الرفيعة التي حظيت بها في أوساط الشعب الجزائري.

يَا بُومَدِينُ أَعْمِي

سَنِّي فِي الْكَارْنِي

أَبَعْتُ الْمَالَ

أَوْلَادَ الشُّهَدَا

عَادُوا رِجَالَ

وتجمع الأغنية الموالية بين شخصيتين ثوريتين ، أحبهما الشعب كثيرا وهما:
شخصية الراحل هواري بومدين وشخصية الرئيس المصري الراحل: جمال عبد الناصر.
وهي أغنية تؤرخ لنكسة 1967م ، أين توحدت عواطف الشعوب العربية بما
فيها: الجزائرية والمصرية ، كما توحدت دماؤهم ، وقد وردت الأغنية على شكل
نصيحة ، ومؤازرة للرئيس الراحل جمال عبد الناصر .

أَهْيَا جَمَالَ عَبْدِ النَّاصِرِ

بَلَاكَ مَلْ - يَهُودْ

مَا تَمَنُّشِيَا

يُجِبْكَ الْجَيْشُ مَنِ الْجَزَائِرِ

يَضْرِبُ بِالْكَفَاحِ

مَا يُبْطَلِّشِيَا

أَهْيَا جَمَالَ عَبْدِ النَّاصِرِ

بَلَاكَ مَلْ - يَهُودْ

مَا تَمَنُّشِيَا

يُجِيكَ بُومَدِينُ مِنَ الْجَزَائِرِ

يَضْرِبُ بِالْكَفَّاحِ

مَا يُبَطِّشِيَا

كما تفتخر الأغنية بقوة الجيش الجزائري آنذاك وبرئيسها "بومدين" باستعداده للوقوف إلى جانب مصر ورئيسها (جمال عبد الناصر) في محنتها. أما عن الأماكن العربية ، فتغنّت الأغنية الشاوية بفلسطين ، واستعداد الأوراسين الوقوف إلى جانبها حيث نزعوا البرانيس وارتدوا لباسهم العسكري ، من أجل حرية الوطن ، ومثل هذا النص شاهد حي على موقف الشعب الجزائري من القضية الفلسطينية :

آيَا فِلِسْطِينُ يَا فِلِسْطِينُ

كِي عَظُّ لَأُورَاسِ

جَا مَسْكِينُ

نَحَا لِبْرُؤُسِ

وَأَلْبَسُ مَنِيْتِيرُ*

وَتَبَقَى بِلَادُنَا

لَحْرَارِ الدِّينِ

هكذا دونت الأغنية الشعبية الثورية ماضيا عريقا ، وتاريخا مفعما بمظاهر الأسى والشجن والحرمان ، ممزوجة بكبوة الإنكسارات تارة ولذة الانتصارات تارة أخرى ، ونقلت بصدق كبير صورا حية عن ثورتنا المجيدة ؛ عن شهدائها وأحداثها عن جبالها ، عن أنين أمهاتها وحماس شبابها ، النابع من تقديس الوطن والحرية،

* منيثير: كلمة فرنسية بمعنى عسكري

وحفظ أسلافنا هذا التراث الغنائي ، ليصلنا من بعد سنين ، ونرى من خلاله معاناة الشعب الجزائري في فترة الاحتلال الفرنسي ومدى صبره ، من أجل أن نحيا اليوم أحرارا.